١

مَنَاقِبُ التُّرْك

رسالة إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة

صورة الصفحة الأولى من مجموعة داماد

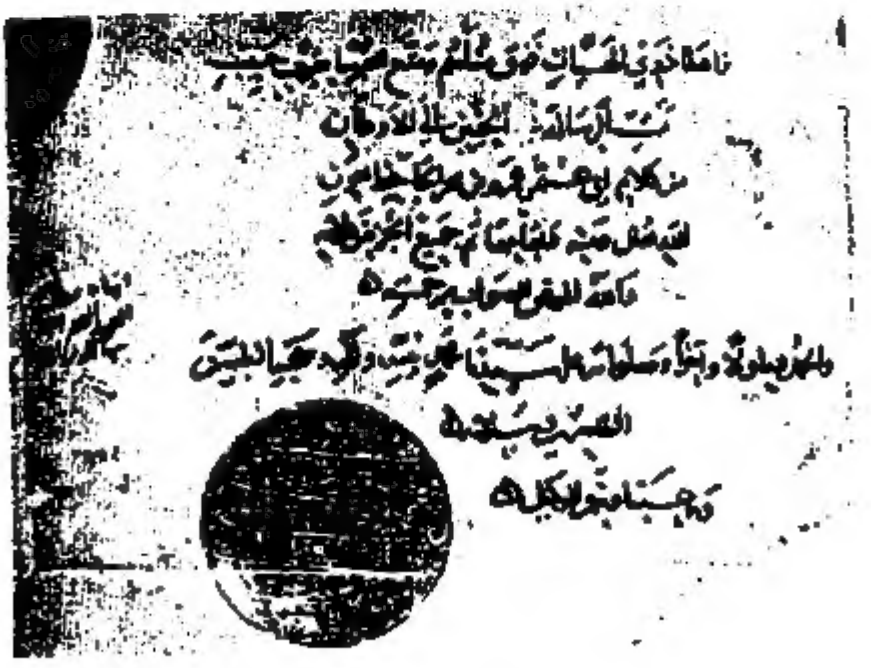

الصفحة الأخيرة من مجموعة داماد

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه هى الرسالة الأولى من مجموعة رسائل الجاحظ نسخة مكتبة داماد ، وعنوانها فى المجموعة « فضائل الأتراك » . وقد اخترت لها العنوان الذى فى سائر المراجع الرموز لها بالرموز التالية :

م = مختارات فصول الجاحظ لعبيد الله بن حسان . نسخة المتحف البريطانى المأخوذ منها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ .

ف = الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، المطبوعة بهامش كامل المبرد طبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٤ . وتختلف عن النسخة السابقة .

ن = ثلاث رسائل للجاحظ نشر فان ڤلوتن . طبع ليدن ١٩٠٣ .

س = مجموعة رسائل للجاحظ نشر السامى .

كما جعلت الرمز « ب » لبقية النسخ إذا انفردت نسخة من النسخ السابقة بصورة من النص يخالف أخواتها .

وهذه الرسالة تستغرق من الأصل مابين الورقة ٢٠ والورقة ٤٩ . وقد أثبت أرقام هذه الأوراق على جنبات الكتاب تيسيرا للرجوع إلى الأصل .

وأكرر التنبيه هنا أن هذا الترقيم هو الترقيم الذى ورد فى النسخة ، وأنه ترقيم مسلسل مع كتاب آخر غير مجموعة داماد سابق عليها .

والفتح بن خاقان هذا هو وزير للمتوكل العباسى ، وكان أديباً شاعراً فصيحاً بارع الذكاء . وكانت له خزانة كتب حافلة ، وله مؤلفات منها كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجوارح ، وكتاب الروضة والزهر . وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ . وهو غير الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان صاحب قلائد العقيان .

انظر فهرست ابن النديم ١٦٩ ـ ١٧٠ ووفيات الوفيات ٢ : ١٥٣ ـ ١٥٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٠ ظ وفقك الله لرشدك ، وأعانَ على شكرك ، وأصلحك وأصلحَ على يدبك ، وجعلنا وإيّاك ممّن يقول بالحقّ ويعمل به ، ويؤثره ويحتمل ما فيه [ممّا قد بصّره منه[1]] ، ولا يكون حظّه منه[2] الوصفَ له والمعرفةَ به ، دون الحثّ عليه والاضطلاعِ إليه ، وكشف القناع فيه ، [وإيصاله إلى أهله ، والصّبرِ على المحافظة على ألّا يصلَ إلى غيرهم ، والتثبُّتِ فى تحقيقه لديهم[3]] ؛ فإنّ الله تعالى لم يعلّم الناسَ ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عاملين ، بل علّمهم ليعملوا ، وبيّنَ لهم ليتّقوا التورّطَ فى وسط الخوف ، والوقوع فى المضارّ[4] ، والتوسّطَ فى المهالك .

[فلذلك[5]] طلب الناس التبيّن ، ولحبّ السلامة من المهلكة ، والرّغبةِ فى المنفعة ، احتملوا ثِقَلَ العلم ، وتعجّلوا مكروه المعافاة . ولقلّة العاملين وكثرةِ الواصفين | قال الأوّلون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين . وإنّما[6]] كثرت الصّفات وقلّتِ الموصوفات ، لأنّ ثوابَ العمل مؤجّل ، واحتمال ما فيه معجّل .

---

(١) ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) فى الأصل « فيه » ، وأثبت ما فى ف ، ن ، س .

(٣) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

(٤) فى الأصل و س : « ليتقوا ولخوف الوقوع فى المضار » .

(٥) التكملة من م ، ف .

(٦) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

وقد أعجبني ما رأيتُ من شَغَفك بطاعة إمامك ، والحماماةِ لتدبير خليفتك ، وإشفاقِك من كل خَلَل وخَلَّة دخلَ على مُلكه وإنْ دقّ[1] ، ونالَ سُلطانَه وإن صغُر ، ومن كلّ أمرٍ خالفه وإنْ خفِيَ مكانُه ، وجانَبَ رضاه وإنْ قلَّ ضرره : ومِنْ تحوّفك أن تَجِدَ المتأوِّلَ إليه طريقا[2] والعدوَّ عليه متسلّقا : فإنّ السلطانَ لا يَخلُو من متأوِّلٍ ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زارٍ[3] ، ومن متعطِّل متصفِّح ، ومن مُعجَب برأيه ذي خَطَلٍ في بيانه ، مولَع بتهجين الصواب ، وبالاعتراض على التدبير ، حتّى كأنّه رائدٌ لجميع الأمّة ، ووكيلٌ لسكان جميع المملكة : يَضَع نفسه في موضع الرُّقباء ، وفي موضع التصفّح على الخلفاء والوزراء : لا يعذِرُ وإن كان مَجازُ العُذر واضحا . ولا يقف فيما يكون الشكُّ محتمِلا ، ولا يُصدِّق بأنّ الشاهدَ يرى ما لا يرى الغائب ، وأنّه لا يعرف مَصادر[4] الرَّأي من لم يشهد مَوارِدَه ، ومُستدبَرَه من لم يعرف مُستقبَله . ومِن محرومٍ قد أضغَنَه الحرمان[5] ، ومن لئيمٍ قد أفسَدَه الإحسان .
٢١ و ومن مستبطئٍ قد أخذ أضعاف حقّه ، وهو لجهله بقَدْره ، ولِضِيق ذَرْعه وقلّة شكره ، يظنّ أنّ الذي بَقِيَ له أكثر ، وأنّ حقّه أوجَب . ومن مستزيد

---

(١) م ، ف : « من كل خلل يدخله وإن دق » ن : « من كل خلل دخل على ملكه وإن دق » .

(٢) المراد بالمتأول المتعلل الذي يتلمس علة وتأويلا لقيامه على السلطان .

(٣) في الأصل : « عن الحكمة » . وأثبت ما في ب . والزاري ، من قولهم : زرى عليه يزري زريا وزراية : عابه وعانبه .

(٤) في الأصل : « مصداق » . صوابه في سائر النسخ .

(٥) أضغنه : حمله على الضغن والحقد . وفي الأصل : « أضحنه » . صوابه في سائر النسخ .

لو ارتجع السلطان[1] سالفَ أياديه البيض عنده ، ونِعَمه السالفةَ عليه ، لكان ذلك أهلًا ، وله مستحقًّا . قد غرَّه الإملاء[2] ، وأبطرَه دوامُ الكفاية ، وأفسدَه طولُ الفراغ . ومِن[3] صاحبِ فِتنةٍ خامل فى الجماعة ، رئيس فى الفُرقة ، نَمّاق فى الهَرْج ، قد أقصاه السلطان ، وأقام صَنَوه[4] ثِقاف الأدب[5] ، وأذلَّه الحكمُ بالحق ، فهو مَنيظٌ لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشفَّى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلَّا إلى الأماني . ولا يأنس إلَّا بكلِّ مُرجِف كذّاب ، ومفتونٍ مُرتاب ، وخارصٍ لا خبرَ فيه[6] ، وخالفٍ لا غَناء عنده ، يريد أن يسوّى بالكُفاة ، ويُرفَع فوق الكُماة : لأمرٍ ما] سلَف له ، ولإحسانٍ كانَ من غيره ، وليس ممَّن يربُّ قديمًا بحديث[7] ، ولا يَحفل بذروس شرف ، ولا يَفصل بين ثواب المحسنين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين .

وكيف يعرف فرقَ ما بين حقّ الذِّمام وثوابِ الكفاية ، من لا يعرف طبقاتِ الحق فى مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل فى منازله .

---

(١) فى الأصل : « لو ارتجع السلطان » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى الأصل و ف : « الأصل » .

(٣) كلمة « من » ساقطة من الأصل و ن و س .

(٤) الصنو : المِثل . فى الأصل : « صنوه » م ، ف : « صفوه » . وأثبت ما فى س و ن .

(٥) الخارص : الكذاب ، يقال خرص وتخرص واخترص . ورجل خراص : كذاب . وفى التنزيل العزيز : « قتل الخراصون » س ، ن « حارص » بالمهملة ، تحريف .

(٦) ربه به : أصلحه وطيبه .

ثم أعلمتني بذلك أنك بنفسك بدأتَ في تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك ، وإيّاها حُطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه . ونِعم العونُ أنتَ إن شاء الله على ملازمة الطّاعة ، والمؤازرة على الخير ، والمكانفة لأهل الحق[1] .

وقد استدللتُ بالذي أرى من شِدّة عنايتك ، وفَرط اكتراثك ، وتفقُّدك لأخابير الأعداء[2] وبحثك عن مناقب الأولياء ، على أنّ ما ظهر من نصحك أمَمٌ[3] ، في جَنْب ما بطَنَ من إخلاصك .

فأمتعَ اللهُ بك خليفتَه ، ومنحنا وإياك محبّته[4] ، وأعاذَنا وإيّاك من قَوْل الزُّور[5] ، والتقرّب بالباطل ، إنّه حميد مجيد ، فعّالٌ لما يريد .

وذكرتَ أبقاك اللهُ أنّك جالستَ أخلاطًا من جُند الخلافة ، وجماعةً من أبناء الدّعوة ، وشيوخًا من جِلّة الشّيعة ، وكُهولًا من أبناء رجال الدّولة ، والمنسوبين إلى الطاعة والمناصحة ، [والمحبّة[6]] الدّينية ، دون محبة الرغبة والرهبة ، وأنّ رجلا من عُرْض تلك الجماعة ، ومن حاشية تلك الجِلّة[7] ارتجلَ ٢١ ظ

---

(١) المكانفة : المعاونة .

(٢) م ، ف فقط : « لأجناس الأعداء » .

(٣) الأمم : الشيء اليسير .

(٤) في الأصل : « نحبة » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) في الأصل و ن : « قبول الزور » .

(٦) التكملة من ف ، م ، س .

(٧) م : « وأن رجلا من عرض تلك الجلة »

الكلام ارتجالَ مستبدٌّ ، وتفرد به تفرُّدَ مُعجَب[1] ، وأنّه لم يستأمر زعماءهم ، ولم يراقب خطباءهم ، وأنّه تعسّف المعانى وتهجّمَ على الألفاظ ، وزعم أنّ جُند الخلافة اليومَ على خمسة أقسام : خراسانى ، وتركىّ ، ومَولّى ، وعربىّ ، وبَتَوىّ . وأنّه أكثر من حَمْد الله وشكره على إحسانه ومِنَنه ، وعلى جميع أياديه وسابغ نعمه ، وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه ، حين ألّف على الطاعة هذه القلوبَ المختلفة ، والأجناسَ المتباينة ، والأهواء المتفرّقة . وأنّك اعترضت على[2] هذا المتكلم المستبدّ ، وعلى هذا القائل المتكلّف ، الذى قسّم هذه الأقسام ، وخالف [بين[3]] هذه الأركان ، وفصّل بين أنسابهم[4] ، وفرّق بين أجناسهم ، وباعَدَ بين أشْبالهم[5] . وأنّك أنكرتَ ذلك عليه أشدّ الإنكار ، وقذعته أشدَّ القَذْع[6] ، وزعمت أنّهم لم يَخرجوا من الاتّفاق أو من شىء يَقرب من الاتّفاق . وأنّك أنكرتَ التّباعدَ فى النّسب ، والتّباين فى السّبب . وقلتَ : بل أزعُم أنّ الخُراسانىّ والتركىّ أخوانِ ، وأن الحيّز واحد ، وأن [حكم ذلك الشّرق ، والقضيّة على[7]] ذلك الطّبع متّفق غير مختلف ، ومتقاربٌ غير متفاوت . وأنّ الأعراق فى الأصل إن لا تكن [كانت[7]] راسخةً فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن

---

(١) الكلام بعده إلى « خطباءهم » ساقط من ف .

(٢) فى الأصل : « أعرضت عن » ، صوابه فى سائر النسخ.

(٣) الكلمة ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ .

(٤) ن ، س : « وباعد بين أنسابهم ». وما بعده إلى « أنسابهم » التالية ساقط من ف ، م .

(٥) فى الأصول : « أنسابهم » ، والوجه ماأثبت .

(٦) قذعه قذعا : رماه بالفحش وسوء القول .

(٧) مابين القوسين ثابت فى جميع النسخ ساقط من الأصل .

لا تكن متساوية فإنها متناسبة : وكلهم خراسانيٌّ في الجملة وإنْ تميَّزوا ببعض الخصائص ، فافترقوا ببعض الوُجوه .

وزعمتَ أنّ اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ، ولا كالاختلاف بين الرُّومي والصَّقْلبيّ ، والزِّنجيّ والحبَشي ، فضلا عما هو أبعدُ جوهراً وأشدُّ خلافاً . بل كاختلافِ ما بين المكّيّ والمدني ، والبدويّ والحضري ، والسَّهلي والجبلي ، وكاختلاف ما بين الطائيّ الجبليّ والطائيّ السَّهلي ، وكما يقال : أنّ هذيلاً أكراد العرب ، وكاختلاف ما بين مَنْ نزل النَّطون وبين من نزل الخُزُون ، وبين من نزل النُّجود وبين من نزل الأغوار .

وزعمتَ أنّ هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللُّغة ، وفارق بعضُهم بعضاً في بعض الصُّوَر ، فقد تخالفت عُليا تميم ، وسُفلَى قيس ، وعَجْز هوازن وفُصحاء الحجاز ، في اللُّغة ، وهي في أكثرها على خلافِ لغة حِمير ، وسُكان تَخاليف اليمن ، وكذلك في الصُّورةِ والشمائلِ والأخلاق[1] . وكلُّهم مع ذلك عربيٌّ خالص ، غير مَشُوب ولا مُعلهَج[2] ولا مذرَّع[3] ولا مزلَّج[4] . ولم يختلفوا اختلافَ ما بين بني قحطان وبني عدنان ، من قِبَل[5] ما طبع الله ٢٢ و

---

(١) ج ، ف : « وكذلك الصورة والصورة ، والشمائل والشمائل ، والأخلاق والأخلاق » .

(٢) المعلهج : الهجين ، وهو العربي ولد من أمة

(٣) المذرع : الذي أمه عربية وأبوه غير عربي ، وأنشد :

إذا باهلي عضه حنظلية لها ولد منه فذاك المذرع

ف ، ج : « مربوع » تحريف .

(٤) المزلج : الدعي ، والملزق بالقوم وليس منهم .

(٥) في الأصل : « بأمر قبل » ، صوابه في سائر النسخ .

عليه تلك البريةَ من خصائص الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كلّ جبرة[1] من الشكل والصورة[2] ومن الأخلاق والشِّيَم .

فإنْ قلتَ : فكيف كان أولادها جميعًا عربًا مع اختلاف الأبوّة .

قلنا : إنّ العربَ[3] لما كانت واحدة فاستووا في الفرعة وفي اللغة ، والشمائل والهمّة ، وفي الأنف والحمِيّة[4] ، وفي الأخلاق والسجيّة ، فسبكوا سَبكًا واحدًا ، وأفرغوا إفراغًا واحدًا ، وكان القالَب واحدًا ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط ، وحين صار ذلك أشدّ تشابهًا في باب الأعمّ والأخصّ وفي باب الوفاق والمباينة[5] من بعض ذوي الأرحام ، جرى عليهم حكمُ الاتّفاق في الحسب ، وصارت هذه الأسباب ولادةً أخرى حتّى تناكحوا عليها ، وتصاهَروا من أجلها ، وامتنعت عدنان فاطبةً من مناكحة بني إسحاق وهو أخو إسماعيل ، وجادُوا بذلك في جميع الدهر لبني قحطان ـ وهو ابن عابِر[6] ـ في إجماع[7] الفريقين على التناكح والمصاهرة ، ومنعهما من ذلك جميعَ الأمم : كِسرى فمَن دونه ، دليلٌ على أنّ النسبَ عندهم متّفق ، وأنّ هذه المعانيَ قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسّة .

---

(١) الجبرة ، بالكسر : الناحية ، كما في القاموس . ف ، ج : « حربرة » تحريف .

(٢) في الأصل : « الصورة » مع سقوط الواو بعدها ، ووجه من سائر النسخ .

(٣) م ، ف : « الجزرة » .

(٤) الأنف ، بالتحريك : الأنفة . ف فقط : « الأنفة » .

(٥) م ، ف : « وفي البنية » . وفي الأصل : « المشية » ، وأثبتناه في سائر النسخ .

(٦) في الأصحاح ١١ : ١٢ من التكوين أنه قحطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد .

(٧) في الأصل : « اختلاف » ، صوابه من سائر النسخ .

ورعمتَ أنه أراد الفرقة والتحزيب[١] ، وأنك أردت الألفة والتقريب .

وزعمتَ أيضاً أنَّ البَتَويَّ خُراسانى ، وأنَّ نسبَ الأبناء نسبُ آبائهم ، وأنَّ حُسن صنيع الآباء ، وقديمَ فعال الأجداد ، هو حسب الأبناء . وأنَّ الموالىَ بالعرب أشبه ، وإليهم أقرب ، وبهم أمسُّ ؛ لأن السُّنة جعلتهم منهم . فقلت : إنَّ الموالىَ أقرب إلى العرب فى كثير من المعانى ؛ لأنهم عربٌ فى الدَّعَى[٢] ، وفى العاقلة[٣] ، وفى الوِراثة[٤] . وهذا تأويل قوله « مَوْلى القَوم مِنهم » و « مولى القَوم مِن أنفسهم[٥] » ، و « الولاء لحُمةٌ كلُحمة النَّسب[٦] » . وعلى شبيه ذلك صار حليفُ القوم منهم ، وحكمه حكمهم ، فصار الأحنف بن شُريق[٧] وهو رجلٌ من تميم ، وكذلك يَعلَى بن مُنْيَة[٨] وهو رجل من تَغلبيةٌ . وكذلك خالد بن عُرفُطة[٩] وهو رجلٌ من عُذرة ٢٢ ظ

---

(١) التحزيب : أن يجعلهم أحزابا وفرقا . فى الأصل : « التخويف » صوابه فى سائر النسخ

(٢) فى الأصل فقط : « النسب » .

(٣) العاقلة : العصبة التى تتحمل عن القاتل ديته .

(٤) م ، ف : الراية » .

(٥) أخرجه البخارى عن أنس . الجامع الصغير ٩١٢٤ .

(٦) أخرجه الطبرانى عن عبد الله بن أبى أوفى ، والحاكم والبيهقى عن ابن عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .

(٧) ترجم له فى الإصابة ٦١ وذكر أنه ممن اختلف فى إسلامه .

(٨) فى الأصل : « منبه » ، صوابه فى سائر النسخ وجمهرة ابن حزم ٢١٣ ، ٢٢٩ . قال ابن حزم : « وهى أمه ، وهى بنت غزوان ، أخت عتبة بن غزوان . اسم أبيه أمية بن عبدة » .

(٩) الاشتقاق ٥٤٧ .

من قريش . وبذلك النَّسَب حَرُمت الصَّدقة على موالى بنى هاشم ؛ فإنّ النبى صلى الله عليه وسلم أحراه فى باب التنزيه والتطهير تجرى مواليهم . وبذلك النَّسَب قَدَّمَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب على بنى عبد شمس ، وقرابتُهم سواء ونسبُهم واحد ، فالعَقْد المتقدِّم ، وللأيدى المتصلة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « منّا خير فارس فى العرب : عُكّاشة ابن مِحْصَن[1] » ، فقال ضِرار بن الأزْوَر الأسَدىّ : ذاك رجلٌ منّا يا رسول الله . قال : « بل هو منّا بالحِلف » . فجعلَ حليفَ القوم منهم ، كما جعلَ ابنَ أخت القوم منهم .

ثم رعمتَ أنّ الأتراك قد شاركوا هؤلاء القومَ فى هذا النَّسب ، وصاروا من العرب بهذا النسب ، مع الذى بانوا به من الجِلال ، وحُفّوا به من شرف الخصال .

على أنّ وَلاء الأتراك لبنى قُريش ، ولبنى عبد مناف ، و [هم] فى سرّ بنى هاشم ، [وهاشم[2]] موضع العذار من حدّ الفرس ، والعِقد من تَكّة الكاعب ، والجوهر المكنون ، والذَّهب المصفّى ، وموضع البُحّة من البيضة ، والعَين فى الرأس ، والرُّوح من البدن ؛ وهم الأنف المقدّم ، والسِّنان الأكبر[3] ، والدُّرّة الزهراء ، والرَّوضة الخضراء ، والذَّهب الأحمر . فقد شاركوا العربَ فى أنسابهم ، والموالىَ فى أسبابهم ، وفَضَلوهم

---

(١) الإصابة ٥٦٢٦ وعكاشة بتشديد الكاف وتخفيفها ، وفيه الحديث : « سبقك بها عكاشة » .

(٢) ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ .

(٣) فى سائر النسخ : « الأكرم » .

يبدأ الفصل الذى لا يلائمه فصل ، وإنْ برَع ، بل لا يعشره شرف وإنْ عظم ، ولا يحدّه وإنْ قدم .

فرعمتَ أنّ أساسَ الجميع متقاربةٌ غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التقارب تكون المؤازرة والمكاتفة ، والطاعة والناصحة ، والمحبة للخاصة والأمّة .

وذكرت أنّه ذكر نُجلاً من مفاخرة الأجناس ، وجمهرة من مناقب هذه الأصناف ، وأنّه جمع ذلك وفصّله[1] وفسّره ، وأنّه ألغى ذكر الأتراك فلم يتعرض لهم ، وأضربَ عنهم صفحا ، يخبر عنهم كما أخبر عن حُجّة كلّ جيل . وعن بُرهان كلّ صِنف : وذكرَ أنّ الخراسانىّ يقول : نحن النُّقباء ، وأنا ٢٣ و النقباء ، ونحن النُّجباء وأبناء النُّجباء ، ومنّا الدُّعاة ، قبل أنْ تظهر نقابة[2] . أو تُعرَف نجابة ، وقبل المغالبة والمباراة ، وقبل كَشف القِناع وزوال التقيّة وزوال ملك أعدائنا عن مستقرّه ، وثبات ملك أوليائنا فى نِصابه . وبين ذلك ما قُتِلنا وشُرِّدنا ، ونُهِكْنا ضربًا[3] وبُضِعنا بالسُّيوف الحِداد[4] ، وعدَتنا ألوان العذاب .

ومنا تَقِىّ الله الصُّدورَ ، وأدرك الثأر . ومنّا الاثناعَشَر النُّقباء ، والسَّبعون النُّجباء . ونحن الخندقيّة[5] ، ونحن الكَفْيَة وأبناء الكَفْيَة[6] .

---

(١) هذه فى معظم النسخ : « وأجمله » .

(٢) النقابة ، بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم . والنقيب : المعرِّف على القوم المقدم عليهم الذى يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم .

(٣) م . ف : « وطلباً » .

(٤) الحداد : المرهفة ، جمع حديد . والبضع : القطع والشق .

(٥) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتى .

(٦) م . ف : « والكفية وأبناء الكفية »

ومن السنجبية ومن يبرج التيمية[1] ومن بني حران[2] وأصحاب الخوريين[3] ومن الزغندية[4] والآزادمردية[5].

ونحن فتحنا البلادَ وقتلنا العباد، وأبَدْنا العدوَّ بكلِّ وادٍ. ونحنُ أهلُ هذه الدَّولة، وأصحاب هذه الدعوة. ومَنَبِت هذه الشجرة. ومن عندنا هبَّت هذه الرِّيح.

والأنصار أنصاران: الأوس والخزرجُ نصروا النبيَّ صلى الله عليه وسلم في أوّل الزمان، وأهلُ خراسان نصروا ورثتَه في آخر الزّمان. غذّانا بذلك آباؤنا وعَذَّوْنا به أسلافنا، وصار لنا نسبًا لا نُعرف إلاّ به. ودِينًا لا نوالي إلاّ عليه.

ثم نحن على وتيرة واحدة، ومنهاج غير مشترك؛ نُعرف بالشيمة، ونُدين بالطّاعة، ونُقتَل فيها ونَموت عليها. سِيمانا موصوفٌ، ولباسنا معروف. نحن أصحاب الرّاياتِ السُّود، والروايات الصحيحة، والأحاديث المأثورة، الذين يَهدِمون مُدنَ الجبابرة، ويَنتزِعون المُلْك من أيدي الظَّلَمة. وفيما

---

(١) ن، س: «يرج» م: «التيمية».

(٢) ف: «تيم» بدل «تيم»

(٣) الجوريين مهملة في الأصل وإعجامها من س، ن. وفي ف: «الجوزتين» م: «الجوزتين».

(٤) رعد، في الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشي. في الأصل: «الدعيدية» والمثبت من سائر النسخ. وسيأتي قوله «ولنا الأصوات التي تسقط منها الحالي».

(٥) الآزاد مردية، اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس. انظر مقال آرثور كريستنسن في مجلة الثقافة العدد ٢٢٤.

تقدم الخبر ، وصحّ الأثر . وجاء فى الحديث صفة الذين يمتحون عَمُّورية[1] ويظهرون عليها ، ويقتلون مُقاتليها ويَسْبون ذراريها ، حيث قالوا فى نعتهم : « شُموم شمُور النِّساء ، وثيابهم ثيابُ الرهبان » . فصدّق الفعلُ القول ، وحقّق الخبرَ العيان .

ونحن الذين ذَكَرْنا وذُكر بلاءنا أمامُ الأئمة ، وأبو الخلائق العشرة : محمد بن على[2] ، حين أراد توجيهَ الدُّعاة إلى الآفاق ، وتفريقَ شيعته فى البلاد ، أن قال :

٢٣ ظ أما البصرة وسوادُها فقد غلب عليها عثمانُ وصانع عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلاّ القليل . وأمّا الشام فشيعةُ بنى مروان وآل أبى سُفيان . وأمّا الجزيرة فحَرُورِيّة شارِيَة[3] ، وخارجة مارقة ، ولكن عليكم بهذا الشَّرق ؛ فإنّ هناك صدوراً سليمة وقلوباً باسلة ، لم تُفْسِدها الأهواء ، ولم تَخامِرها الأدواء ، ولم تعتقِبْها البدع ، وهم معيطون موتورون . وهناك العَدد [والعُدّة[4]] ، والعَتاد والنَّجدة .

---

(١) عمورية : بلد فى بلاد الروم ، فتحها المعتصم العباسى سنة ٢٢٣ . ولهذا الفتح قصة عجيبة فى كتب التاريخ . وفيه يقول أبو تمام :

بأيوم وقعة عمورية انصرفت عنك الى حفلا معسولة الحلب

(٢) محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، والد السفاح والمنصور ، أول من نطق بالدعوة العباسية . توفى سنة ١٢٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) الشارية : جمع شار ، وهم الذى شروا أنفسهم أى باعوها فى سبيل الله ، وهم الخوارج .

(٤) ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ

ثم قال : [وأنا أتعادل[1]] إلى حيث يطلع منه النهار[2] . فكنّا خيرَ جُنْدٍ لخير إمام ؛ فصدّقنا ظنّه ، ونَثَقْنا رأيه ، وصوّبنا فِراسته .

وقال مرّةً أخرى :

أمرُنا هذا شرقيٌّ لا غربيّ ، ومُقْبِل لا مدبر[3] ، يطلع كطلوع الشمس ، ويمتدّ على الآفاق امتدادَ النهار ، حتّى يبلغ حيث تنامه الأحقاف[4] ، وتناله الحوافر .

قالوا : ونحن فتياننا الصَّحْصَحِيّة[5] ، والدّالقية ، والدُّكوانيّة ، والرّاشديّة[6] . ونحن أيضاً أصحاب الخنادق أيّامَ نصر بن سيّار ، وابن جُذَيْع الكرمانيّ[7] ، وشيبان بن سَلَمة الحارجي . ونحن أصحاب نائلة بن حنظلة[8] ، وعامر بن ضبارة[9] ، وأصحابُ ابن هبيرة . فلمّا قديمَ هذا الأمر وحديثه ، وأوّله وآخره

---

(١) موضعها بياض في الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) م ، ف : « إلى حيث ما تطلع » فقط . ن ، س : « إلى حيث يطلع النهار » .

(٣) م ، ف : « غير مدبر » .

(٤) م ، ف : « حيثما تبلغه الأحقاف » .

(٥) في الأصل ، م ، ف : « الصحيحة » وما أثبته في ن ، س .

(٦) الصحصحية : نسبة إلى صحصح ، وكان أحد الكاهنين . انظر الحيوان ٣ : ٣٩٥ والبخلاء ٤ والطبري ٩ : ١٣١ في حوادث سنة ١٣٢ . والدالقية ، بدلها في الطبري : « الدوكانية » والراشدية ذكرها الطبري في الموضع الذي أشرت إليه

(٧) هو علي بن جذيع الكرماني الطبري ٩ : ٩١ ، ٩٧ والاشتقاق ٢٩٥ وفهرس دار المخطوطات ٢ ١٨٦ ، ١٩١ وجمهرة ابن حزم ٣١٧

(٨) جمهرة أنساب العرب ٢٨٣ وهو من بني كلاب بن ربيعة .

(٩) الاشتقاق ٢٨٩ ، ٢٩٠ والجمهرة ٢٥٤ ، وكان من قواد ابن هبيرة .

ومنّا قاتلُ مروان[١] .

ونحنُ قومٌ لنا أجسامٌ وأجرام ، وشُعورٌ وهام ، ومناكبُ عِظام ، وجِباهٌ عِراض ، وقَصَرٌ غِلاظ[٢] ، وسواعدُ طِوال .

ونحنُ أولَدُ للذُّكورة ، وأنسَلُ بُعولة . وأقلُّ ضَوًى وضُؤولة ، وأقلّ إتآما وأنتق أرحاما[٣] . وأشدُّ عصبا وأتمُّ عظاما . وأبدانُنا أحمَلُ للسلاح ، وتَجفافُنا[٤] أملأُ للعيون .

ونحن أكثرُ مادّةً ، وأكثرُ عَدَدا وعُدّة .

ولو أنَّ يأجوج ومأجوجَ كاثَرُوا مَنْ وراء النَّهر منّا لظهروا عليهم بالعَدد . فأمّا الأَبْد وشِدّةُ الأسْر ، فليس لأحد سدَّ عادٍ وثمودَ والعمالقة والكَنعانيّين مثلُ أبدِنا وأسْرِنا .

(١) فى الطبرى ٩ : ١٣٦ أن قاتل مروان بن محمد سنة ١٣٢ رجل من أهل البصرة يقال له «العود» . فى الأصل : «وبنا قاتل من ولى» ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة ، وهى أصل العنق . وبه فسر ابن عباس قوله تعالى : «إنها ترمى بشرر كالقصر» فى قراءته بفتح الصاد . فى الأصل : «فصص» وفى ن ، س : «فصص» صوابه فى م ، ف .

(٣) هذا ما فى م ، ف . والإتآم : أن تلد اثنين فى بطن . وأنتق أرحاما أكثر ولادة . وفى الأصل : «وأجل أحسابا وأوثق أبدانا» وفى ن ، س «وأقل أيامى وأنتق أرحاما» ، لكن بعض أصول ن توافق الأصل

(٤) التجفاف : ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح فى الحرب وفى الأصل : «وخفافنا» وفى سائر الأصول : «وأخفافنا» ، والوجه ما أثبت وفى البيان ٣ : ١٨ فى قول الشعوبية : «ولا تعرفون الأقبية ولا السراويلات ، ولا تعليق السيوف ، ولا الطبول ولا البنود ولا التجافيف» وانظر ص ١٩ س ١٢ .

ولو أن خيولَ الأرضِ وفُرسان جميعِ الأطراف جُمعوا فى حَلْبَةٍ واحدة ، لكُنَّا أكثرَ فى العيون ، وأهْوَلَ فى الصدور .

ومتى رأيتَ مواكبَنا وفُرساننا ، وبنودنا التى لا يحملها غيرُنا ، علمتَ أننا لم نُحَنَّك إلَّا لقَلْب الدُّوَل ، وطاعة الخلفاء ، وتأييد السلطان . ٢٤ و

ولو أنَّ أهلَ التِّبَّت ورجالَ الزَّابج[1] ، وفُرسانَ الهند ، وحَلَبة الرُّوم ، هجَم عليهم هاشمُ بن أشتاخنج[2] لما امتنعوا من طَرْح السِّلاح والهربِ فى البلاد .

ونحنُ أصحابُ اللِّحَى وأرباب النُّهَى ، وأهلُ الحلم والحِجَا ، وأهلُ الدِّهَانة[3] فى الرأى ، والبُعد من الطَّيش . ولنا كجُنْد الشَّام المتعرِّضين للحَرَم ، والمنتهكين لكلِّ مُحْرَم .

ونحن ناسٌ لنا أمانةٌ وفينا عِفَّة . ونحن نجمع بين النَّزاهة والقَناعة والصَّبر على الخدمة ، والتحمير عند بعد الشُّقَّة[4] . ولنا الطُّبول المَهُولة العِظام والبُنود ، ونحن أصحاب التجافيف والأجراس ، والبازيكند[5] واللُّبود الطِّوال ، والأغماد

---

(١) الزابج بفتح الباء وكسرها : جزيرة فى أقصى بلاد الهند فى حدود الصين وفى الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « ويزعم تجار التبت ممن قد دخل الصين والزابج » م : « الزنج » ، تحريف .

(٢) كلمة « بن » ساقطة من الأصل . وإثباتها من سائر النسخ والطبرى ٩ : ٢٨٣ . وقتل هاشم هذا سنة ١٥٢ .

(٣) فى الأصل : « النجابة » ، وفى م ، س : « النعانة » ، وأثبت ما فى سائر النسخ . والمراد قوة الرأى وجزالته .

(٤) تحمير الجيش : إبقاؤه فى ثغر العدو .

(٥) البازيكند . يبدو أنه كساء يلقى على الكتف . و « باز » فى الفارسية =

المقفة[١] والشوارب المقرنة ، والقلانس الشاشية ، والخيول الشهرية[٢] . والكافركوبات[٣] والطبرزينات[٤] [في الأكف] ، والخناجر في الأوساط . ولنا حسن الجلسة على ظهور الخيل . ولنا الأصوات التي تسقط منها الحصى .

وليس في الأرض صناعة غريبة من أدب وحكمة ، وحساب وهندسة ، وإيقاع وصنعة[٥] ، وفقه ورواية ، نظرت فيها الفراسانية إلا فرعت فيها الرؤساء[٦] ، وبزت فيها العلماء .

ولنا صنعة السلاح من لبد وركاب ودرع . ولنا مما جعلناه رياضة وتمرينا ، وإرهاصا للحرب ، وتثقيفا ودربة المجاولة والمشاولة ، [و] الكر

= بمعنى الكتف . انظر البيان ١ : ٩٥ / ٣ : ١١٥ في الأصل : « البازكند » وفي سائر النسخ : « النار فكند » .

(١) المقفة . المرجة . وذلك لاعوجاج السيوف التي تحمل فيها ف : « والأعمدة والخفقة » ج : « والأعمدة والمقفة » .

(٢) في البيان : « والشهرية : ضرب من البراذين ، وهو بين الردون والقرف من الخيل » .

(٣) الكافركوبات : جمع كافركوب . وهي القرعة انظر حواشي البيان ١ : ١٤٢ . في الأصل : « الكافركورات » . صوابه في سائر النسخ

(٤) الطبرزينات : جمع طبرزين ، وهو فأس تستعمل في القتال عند الفرس . مركب من « تبر » بمعنى الفأس ، و « زين » بمعنى السرج ، لعله سمي بذلك لالتزام وضعه بجانب السرج استيجاس ٢٧٠ والمعرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية ١١١ وكلمة « في الأكف » بعدها من سائر النسخ

(٥) م ، ف : « وارتفاع بناء وصنعة » .

(٦) فرعه : علاه وطاله .

بعد الكرّ : مثل الدَّبُّوق[١] ، والتَّزْو على احميل صغارًا ، ومثل الطَّبْطاب[٢] والصَّوَالجة الكبار ، ثم رمى الجَمَّة[٣] ، والبرجاس[٤] والطائر الخَطاف .

فنحن أحقّ بالأَثَرة[٥] ، وأولى بشرف المنزلة .

ثم قلت : وزَعم أنّ القرابة[٦] تُستَحَقّ بالأسباب الثابتة ، وبالأرحام الشابكة ، وبالقِدمة ، والطاعة للآباء والعشيرة ، وبالشكر النافع ، والمديح الكافي[٧] بالشعر الموزون الذى يبقى بقاء الدهر ، وبوح ما لاحَ نجم ، ويُنشَد ما أهلّ بالحج ، وما هَتَت الصَّبا ، وما كان للرِّيت عاصر : وبالكلام المنثور والقول المأثور . أو بصفة مخرج الدولة والاحتجاج للدعوة ، وتقييد المآثر ، إذْ لم يكن [ذلك من[٨]] عادة العجم ، ولا كان يُحفظ ذلك معروفا لسوى العرب . ونحن نرتبطها بالشعر المقفّى ، ونصلها بحفظ الأمّيين[٩] . الذين ٢٤ ظ

---

(١) فى اللسان : « الدبوق : لعبة يلعب بها الصبيان ، معروفة » .

(٢) الطبطاب : مضرب الكرة .

(٣) الجمة : ماعصب من الحيوان للرمى والقتل .

(٤) البرجاس : غرض فى الهواء على رأس رمح أو نحوه الألفاظ الفارسية ١٨ . فى الأصل و م : « البرجاسب » وفى ف : « البرجاسيار » ، وأثبت مافى سائر النسخ

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « بالإمرة » . وانظر ٢٥ س ٩ و ٢٨ س ١٤

(٦) القربة : القرابة م : « إن تسكن القربة » ف « إن تسكن القربى » :

(٧) م ، ف : « والمديح الباقى » ولعلها : « والمديح الباقى »

(٨) التكملة من سائر النسخ .

(٩) فى الأصل : « الأثر » ، صوابه من سائر النسخ . وقد سقط بعده سقط كبير ينتهى فى س ٢٥ أثبته من سائر النسخ بين معقفين .

لا يتّكلون على الكتب المدوّنة ، والخطوط المطرّسة . ونحن أصحاب التفاخر والتنافر ، والتسارع فى الشّرف ، والتحاكم إلى كلّ حَكَم مُقنع وكاهن سَجّاع ولنا التعايُر بالمثالب ، والتفاخُر بالمناقب . ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا وتقييدها أيضًا بالمنثور المرسَل ، بعد الموزون المعدَّل ، بلسان أمضى من السِّنان ، وأرهَف من السَّيف الحسام ، حتى تذكّرهم ما قد درس رسْمُه ، وعفا أثره .

وبين القتال من جهة الرغبة والرهبة فرق ، وليس الشّرق فى الحفاظ كمن هذا فيه حادث . وهذا بابٌ يتقدّم فيه التالد القديمُ الطارفَ الحديث .

وطُلّاب الطوائل رجلان : سجستانى وأعرابىّ . وهل أكثر النقباء إلّا من صميم العرب ، ومن صَليبة هذا النَّسب ، كأبى عبد الحميد قَحطَبة ابن شَبيب الطائى ، وأبى محمد سليمان بن كثير الخزاعى ، وأبى نصر مالك ابن الهيثم الخزاعى ، وأبى داود خالد بن إبراهيم الذُّهلىّ ، وكأبى عمرو لاهز ابن قريظ التَّمِيمىّ[1] ، وأبى عتيبة موسى بن كعب التَّرْجانى[2] ، وأبى سهل القاسم ابن محاشع المزنى ، ومن كان يجرى مجرى النُّقباء ولم يدخل فيهم ، مثل مالك ابن الطوّاف الزَّمّانىّ .

وبعد فمن هذا الذى باشر قتل مروان[3] ، ومن هزمَ ابنَ هبيرة ، ومن

---

(١) نسبة إلى امرئ القيس . فهو لاهز بن قريظ بن سرى بن الكاهن بن زيد بن عصية بن امرئ القيس . جمهرة أنساب العرب ٢١٤ قال : «كان من وجوه أهل دعوة بنى العباس» وفى الأصول : «المازنى» .

(٢) إن صح كان نسبة إلى مران بن حمى بن سعد العشيرة . انظر جمهرة ابن حزم ٤٠٩ والمعارف ٤٨ .

(٣) انظر ماسبق فى ص ١٨ ويبدو أن قتل مروان بن محمد كان موضع مفاخرة بين العرب وعجمهم .

قتل ابن ضبارة ، ومن قتل نباتة بن حنظلة ، إلا عرب الدعوة ، والصميم من أهل الدولة ؟! ومن فتح السند إلا موسى بن كعب ، ومن فتح إفريقية إلا محمد ابن الأشعث ؟!

وقلت : وقال : وتقول الموالى : لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة الراسخة ، ونحن موضع الثقة عند الشدة . وعالُ المولى[1] من نعتُ موجبة لمحبة المولى من فوق ، لأنَّ شرف مولاه راجعٌ إليه ، وكرمه زائد فى كرمه ، وعلوه ناقط لقدره . وبودّه أنَّ خصالَ الكرام كلَّها اجتمعت فيه ؛ لأنَّه كلَّما كان مولاه أكبر وأشرف وأظهر ، كان هو بها أشرفَ وأنبل . ومولاك أسلم لك صدرًا ، وأردُّ ضميرًا ، وأقلُّ حسدًا .

وبعدُ فالولاء لحمة كلحمة النَّسب[2] ، فقد صار لنا النسب الذى يصوِّبه العربىّ ، ولنا الأصل الذى يفتخر به المعنى .

قال : والصَّبر حروب ، فأكرمها كلها الصبر على إفشاء السرّ . وللمولى فى هذه المكرمة ما ليس لأحد .

ونحن أحمزُ مَدخلاً ، وألطف فى الخدمة مسلكا . ولنا مع الطاعة والخدمة والإخلاص وحُسن النيّة ، خدمةُ الأبناء للآباء ، والآباء للأجداد ، وهم عواليهم آنَس ، وبناحيتهم أوثق ، وبكفايتهم أسَرّ .

وقد كان المنصور ، ومحمد بن على ، وعلى بن عبد الله ، يخصُّون مواليَهم بالمواكلة والبسط والإيناس ، لا يُبهرجون الأسْوَدَ لسواده[3] ، ولا الدميم

(١) م : « المولى » ، وكذا بعض أصول ن .
(٢) انظر ماسبق فى ١٢ س ٧
(٣) بهرج الشىء . أبطله وأهدره . والمراد أنهم لا يضعون من قدره .

لدمامته ، ولا الصناعة الدنيئة لدناءتها . ويوصون بحفظهم أكابرَ أولادهم ، ويحملون لكثيرٍ من موتاهم الصلاةَ على جنائزهم ، وذلك بحضرة من العصبة وبني الأعمام والأخوة .

ويتذاكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثةَ مولاه ، حينَ عقدَ له يومَ مؤتة على جِلّة بني هاشم ، وجَعَله أميرَ كلِّ بلدةٍ يطؤها[1] .

ويتذاكرون حبَّه لأسامة بن زيد ، وهو الحِبُّ ابنُ الحِبِّ[2] . وعقدِه على عظماء المهاجرين وأكابر الأنصار .

ويتذاكرون صنيعه بسائر مواليـــه ، كأبي أنسة[3] ، وشُقران[4] ، وفلان وفلان .

قالوا : وممن من رءوس النقباء أبو منصور مولى خزاعة ، وأبو الحكم عيسى بن أعْيَن مولى خزاعة ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى آل

---

(١) أي يدخلها ويفتحها .

(٢) العثمانية للجاحظ ١٤٧ ، وقد وقع هناك تحريف في الطبع .

(٣) اختلف في اسم هذا أنسة أيضا كما في الإصابة ٢٨٥ . وكان حبشيا كما في جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وسلم . ومات في خلافة أبي بكر

(٤) شقران يقال كان اسمه صالح بن عدي ، وكان حبشيا أهداه عبد الرحمن بن عوف لرسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوه جوامع السيرة ٢٦٥ وذكر ابن هشام في السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب الماء عليه في غسله .

أبي مُنَيط . فلنا مناقب الخراسانية ، ولنا مناقب الموالي في هذه الدعوة ، ونحن منهم وإليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلمٌ ولا ينكره مؤمن ، خدمْناهم كباراً وحملناهم على عواتقنا صغاراً . هذا مع حقّ الرَّضاع والطفولة ، والنشوء في الكُتّاب ، والتقلُّب في تلك العِراص التي لم يبلغها إلاّ كلّ سعيدِ الجدّ ، وحيه في الملوك . فقد شاركنا العربيّ في نفره ، والخراسانيّ في مجده ، والبَنَويّ في فضله ، ثم تفرّدْنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سَمَوا إليه .

قالوا : ونحن أشكل بالرعيّة ، وأقرب إلى طِباع الدّهماء ؛ وهم بنا آنَس وإلينا أسكن ، وإلى لقائنا أحنُّ ؛ ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم أشْبَه . فنحنُ أحقُّ بالأثرة ، وأولى بحُسن المنزلة ممّن هذه الخصالُ له ، وهذه الخلالُ فيه .

وقلت وذكرت أن البَنَويّ قال :

أنا أصلي خراسان ، وهي مَخرج الدّولة ومَطلع الدّعوة : ومنها نجم هذا القرن ، وصبأ هذا الناب[1] ، وتفجّر هذا الينبوع ، واستفاض هذا البحر ، حتى ضَرب الحقُّ بِحرانه[2] . وطبّق الآفاقَ بصيانه ، فأبرأ من السّقم القديم ، وشفى من الداء المُضاف ، وأغنى من العَيلة[3] . ونضر من العمى[4] .

---

(١) صبأ الناب : طلع حده وخرج .

(٢) ضرب بحرانه : استقر وثبت وأصل الحران باطن عنق البعير . فإذا برك البعير واستقر قيل : ألقى جرانه . وفي حديث عائشة أيضاً : « حتى ضرب الحق بجرانه » .

(٣) أي بعد العيلة وهي الفقر .

(٤) هنا ينتهي السقط الذي بدأ في ص ٢١ ، وأثبته من سائر النسخ .

قال : وفرعى بغداد ، وهى مستقرّ الخلافة ، والقرار بعد الحَوْلة[١] ، وفيها بقيّة رجال الدعوة ، وأبناء الشّيعة ، وهى خُراسانُ العراق ، وبيت الخلافة ، وموضع المادّة .

قال : وأنا أعرقُ فى هذا الأمر من أبى ، وأكثر تردادا فيه من جدّى[٢] ، وأحقّ فى هذا الفضل[٣] من المَوْلى والعربىّ . ولنا بعدُ أعمالا يُنكَر من الصّبر تحت ظِلال السُّيوف القصار والرِّماح الطوال[٤] . [ولنا معانقة الأبطال عند تحطُّم القنا واقطاع الصفائح[٥] . ولنا المواجأة بالسّكاكين ، وتلقّى الخناجر بالعيون ، ونحن حُماة المتاجر ، وأبناء المضايق . ونحن أهل الثبات عند الجولة ، والمعرفة عند الحَيْرة[٦] ، وأصحاب الشّهرات ، وزينة العساكر وحُلَى الجيوش ، ومَن يمشى فى الرّمح ، ويختال بين الصّفّين . ونحن أصحاب الفتك والإقدام ، ولنا بعدُ التأنّق ، وقصب المدْن ، والتقحُّم على ظُبات السّيوف وأطراف الرِّماح ، ورضخ الجندل . وهشْم العمد ، والصبرُ على الجراح وعلى حَرّ السّلاح[٧] إذا طار قلبُ الأعرابىّ ، وساء ظنّ الخراسانىّ . ثم الصّبرُ تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المسألة ، واحتمال الغُلّ ، ومحنة

---

(١) الحولة ، بالحاء المهملة المفتوحة : التحول والنقل .

(٢) فى الأصل و ن ، س : « وأكثر ترددا من جدى » ، وأثبت ما فى م ، ف .

(٣) ج ، ف : « وأحق بهذا الفضل »

(٤) بعده سقط فى الأصل ، تمامه فى ص ٢٨ س ٩

(٥) الصفائح : جمع صفيحة ، وهى السيف العريض .

(٦) ج وبعض أصول ن : « الخيرة » ، وفى سائر النسخ : « الخرة » ، والوجه ما أثبت .

(٧) يقال أجرّه الرمح ، إذا طعنه به ثم وهو يجره .

الطَّرْف ، وثباتُ القدمين ، وقلّة التكفّي بحبل المقابين[1] ، والمدد من الإقرار[2] ، وقلّة الخضوع للدهر والخضوع عند حموة الزوّار[3] وحماء الأقارب والإخوان .

ولنا القتالُ عند أبواب الخنادق ، ورءوس القناطر . ونحن الموتُ الأحمر عند أنواب النَّقَب . ولنا المواجأة في الأزقّة ، والصَّبر على قتال الشحون . فسَلْ عن ذلك الخَلِيديّة[4] ، والكتمية ، والبلالية ، والخريبية[5] . ونحن أصحاب المكابدات[6] وأرباب النيّات ، وقتل الناسِ جِهاراً في الأسواق والطُّرقات .

ونحن نجمع بين السَّلة والمزاحمة[7] . ونحن أصحاب القنا الطِّوال ما كنّ رَجالة ، والمطاردِ القصارِ ما كنّ فُرسانا[8] . فإن صِرنا كُمَناً[9] فالخَتْف

---

(١) التكفي : النميل والتقلب . والمقابان : حشبتان يشبح بينهما الرجل فيعذب . اللسان (عقب) وحتى الجنبز ٨٠ .

(٢) ف فقط : « من الفرار » . والمراد الإقرار بالدال .

(٣) في معظم الأصول : « حفوة » بالحاء المهملة ، والوجه ما أثبت

(٤) طائفة منسوبون إلى خليد . وجاء في البخلاء ٤٢ - ٤٣ : « سل عن الكتيفية والخليدية والخريبية والبلالية » ويبدو أنهم طوائف من أهل الشعب والغوغى .

(٥) الخريبية : نسبة إلى الخربة ، بالتصغير . وهي موضع بالبصرة ، يبدو أنه كان مأوى للشطار .

(٦) هذا ما في ف وفي سائر الأصول : « المكابرات »

(٧) السلة : الدعسة في السباق إجمالاً .

(٨) المطارد ، جمع مطرد بالكسر . وهو الرمح القصير

(٩) جمع كمين . وهم الذين يكمنون ويختفون في الحرب .

القاصى ، والسيف الذعاف . وإن كنا طلائع فكذلك يقوم مقام أمير الجيش . نقاتل بالليل كما نقاتل بالنهار ، ونقاتل فى الماء كما نقاتل على الأرض . ونقاتل فى القرية كما نقاتل فى الحلة .

ونحن أفتك وأخشب[1] ، ونحن أقطع للطريق وأذكر فى الثغور ، مع حسن القدود وجودة الخرط ومقادير اللحى ، وحسن العمة ، والنفس النزة . وأصحاب الباطل والفتوة[2] ، ثم الخط والكتابة ، والفقه والرواية .

ولنا بعد ذا سرها ، تسكن ما سكنا ، وتتحرك ما تحركنا . والدنيا كلها معلقة بها ، وصائرة إلى معناها . فإذا كان هذا أمرها وقدرها فجميع الدنيا سع[3] لنا . وكذلك أهلها لأهلها ، وفتاكها لفتاكها ، وخلاعها لخلاعها[4] ، ورؤساؤها لرؤسائها ، وصلحاؤها لصلحائها .

ونحن بعد تربية الخلفاء ، وحيران الوزراء ، ولدينا فى أعنية ملوكنا ، ونحن أجنحة خلفائنا . فأخذنا بآثارهم ، واحتذينا على مثالهم ، فلسنا نعرف سواهم . ولا نعرف بعيرهم ، ولا يطمع فينا أحد قط من خطاب ملكهم ، وممن يترشح للاعتراض عليهم . فمن أحق بالأثرة ، وأولى بالقرب فى المنزلة ممن هذه الخصال فيه ، وهذه الخلال له .

---

(١) أى أشد خشونة وعلاظة .

(٢) كلة « الباطل » ساقطة من ف .

(٣) هنا يدهى سقط الأصل الذى بدأ فى ص ٢٦ س ٦ وإثباته من سائر النسخ .

(٤) كذا فى جميع النسخ .

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ ذهنك حفظك الله يعقب هذه الاحتجاجات ، وعندَ مقطع هذه الاستدلالات ، يستعمل هذه المعارضةَ[1] بمناقب الأتراك ، والموازنة بين خصائص وخصال كلّ صنف من هذه الأصناف ، سلكنا في هذا الكتاب سبيلَ أصحاب الخصومات في كُتُبهم ، وطريقَ أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم .

وكتابُنا هذا إنّما تكلّفناه لنؤلّف بين قلوبهم التي كانت مختلفة ، ولنزيد الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتّفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرفَ من كان لا يعرف منهم موضعَ التفاوت في النسب ، وكم مقدارُ الخلاف في الحسب[2] ، فلا يُغيّر بعضهم بعضٌ ، ولا يغدَهُ عدوٌّ بأباطيلَ مموّهة وشبهات مزوّرة : فإنّ المنافق العليم ، والعدوّ ذا الكيد العظيم ، قد يصوّر لهم الباطل في صورة الحقّ ، ويُلبِس الإضاعةَ ثياب الحَزْم . إلا أنّ على حال سنذكر جملاً من أحاديث روبناها وعيناها ، وأمورٍ رأيناها وشاهدناها ، وفضائل تلقّفناها[3] من أفواه الرجال وسمعناها . ١٢٥

وسنذكر جميع ما في هذه الأصناف[4] من الآلات والأدوات ، ثم ننظر أيّهم لها أشدّ استعمالاً ، وبها أشدّ استقلالاً ، ومَن أثقبُ كيدا وأفتح عيناً

---

(١) ما عدا الأصل وبعض أصول ن : « المقاومة » ، والوجه ما أثبت .

(٢) ـ ف : « كم مقدار » بدون واو .

(٣) في الأصل : « تلقاها » ، وأثبت ما في سائر النسخ .

(٤) في سائر النسخ « ما حفظ جميع الأصناف » .

وأذكى بقياً ، وأبعدَ عَورا وأجمع أسراً ، وأعمّ خواطرَ وأكثرَ غراتَ ، وأبدع طريقاً ، وأدومَ معاً فى الحروب ،وأضرّى وأدوبَ دُربة ، وأعصَ مكيدة[1] ، وأشدَّ احتراساً وألطفَ احتيالاً ؛ حتّى يكون الخيار فى يد الناظر للتصفّح لمعانيه ، والمقلّب لوجوهه ، والمفكّر فى أبوابه ، والمقابِل بين أوّله وآخره ، فلا نكون نحن انتحلنا شيئاً دون شىء ، وتقلّدنا تفضيلَ بعضٍ على بعض . بل لعلّنا أن لا[2] نُخبرَ عن خاصّة ما عندنا بحرف واحد .

فإذا تركنا كتابَنا هذا التدبيرَ ، وكان موضوعُه على هذه الصّفة ، كان أبعدَ له من مذاهب الجدال والمِراء ، واستمالِ الهوى .

وقد ظنّ ناسٌ أنّ أسماء أصناف الأجناس كما اختلفت فى الصّورة والخطّ والهجاء ، أن حقائقها[3] ومعانيها على حَسَب ذلك . وليس الأمرُ على حسب ما توهّمه ؛ ألا ترى أنّ اسمَ الشّاكريّة[4] وإن خالفَ فى الصّورة والهجاء اسمَ الجُنْد ، فإنّ المعنى فيهما ليس ببعيد ؛ لأنّهم يرجعون إلى معنًى واحد وعمل واحد . والذى إليه يرجعون طاعةُ الخلفاء ، وتأييد السّلطان .

وإذا كان المولى منقولاً إلى العرب فى أكثر المعانى ، ومجمولاً منهم فى عامّة

---

(١) بعده فى الأصل: «وأبدع طريقاً وأدوم نفعاً فى الحروب» ، وهو تكرار .

(٢) التكملة من سائر النسخ .

(٣) ج ، ف : « كانت حقائقها » .

(٤) الشاكرية : ضرب من الجنود . وفى القاموس : « الشاكرى : الأجير المستخدم ، معرب چاكر » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .

الأسباب ، لم يكن ذلك بأعجب ممن جعل الخال والدا ، والحليف من العشيرة ، وابن الأخت من القوم .

وقد حُمِل ابنُ اللاعنة[1] المولودُ على فراش البعل منسوبا إلى أمّه .

وقد جعلوا إسماعيلَ وهو ابن مجسّيين عربيًّا : لأنّ الله تعالى فتق لهاته بالعربيّة المبينة على غير التلقين والترتيب ، ثمّ فطره على الفصاحة المحببة على غير التشوّ والتقدير[2] ، وسلخ طِباعه من طبائع العجم ، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء ، وركّبه اختراعا[3] على ذلك التركيب ، وسوّاه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصّياغة[4] ، ثم حماه من طبائعهم ، ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبّعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها وأمكنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعل ذلك برهانا على رسالته ، ودليلا على نبوّته : فكان أحقّ بذلك النّسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب .

وكما جُعِل إبراهيمُ أبا لمن لم يلده ، فالنّبيّ خُراسانيٌّ من جهة الولادة ، والمولى عربيٌّ من جهة الدّعَى والعاقلة[5] . وإنْ أحاطَ علمنا بأنّ زيدًا لم يخلق من نَجْل عمرو إلّا إعمارًا لنفيناه عنه[6] ، وإن وثقنا[7] أنّه لم يخلق من صُلبه .

---

(١) اللاعنة : أن يقذف الرجل امرأته برجل أنه زنى بها .

(٢) وكذا فى بعض أصول ن ، وفى سائر النسخ : « والتمرين » .

(٣) التكملة من سائر النسخ .

(٤) وكذا فى بعض أصول ن . وفى سائر النسخ : « الصيغة » .

(٥) انظر ماسبق فى ص ١٢ الحاشية ٣ .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « إلا بما هو ألحقناه به » .

(٧) وكذا فى بعض أصول ن ، وفى سائر النسخ : « وإن أيقنا » .

وكما جعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم أزواجه أمَّهات المؤمنين وهنَّ لم يلدنهم ولا أرضعنَهم ، وفي بعض القراءات[1] : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ﴾ ، على قوله : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ[2] ﴾ . وجعل للمرأة من جهة الرَّضاع أمًّا ، وجعل [امرأة] الفحل أمّ ولد الفحل من غيرها ، وجعل] الرجلَ والدًا ، وجعل العمّ أبًا [في كتاب الله[3]] . وهم عبيدُه لا يتقلَّبون إلّا فيما قدَّمهم فيه . وله أن يجعل من عباده مَن شاء عربيًّا ومن شاء عجميًّا ، ومن شاء قرشيًّا ، ومن شاء زِنجيًّا ؛ كما له أن يجعل من شاء ذكرًا ومن شاء أنثى ، [ومن شاء خنثى[4]] ، ومن شاء أفردَه من ذلك فجعله لا ذكرًا ولا أنثى ولا خُنثى .

وكذلك خَلَق الملائكةَ وهم أكرمُ على الله من جميع الخليقة . وخلقَ آدمَ فلم يجعل له أبًا ولا أمًّا ، وخلقه من طينٍ ونسبه إليه . وخلق حوّاء من ضلع آدمَ وجعلها له زوجًا وسكنًا . وخلق عيسى من غير ذكرٍ ونسبه إلى أمّه التي خلقه منها . وخَلَق الجانَّ من نار السموم . وآدمَ من طينٍ ؛ وعيسى من غير نطفة . وخلقَ السماء من دُخانٍ ، والأرضَ من الماء ، وخلق إسحاقَ من عاقرٍ . وأنطق عيسى في المَهد ، وأنطق يحيى بالحكمة وهو صبيّ ، وعلَّم سليمانَ منطقَ الطَّير ، وكلامَ النَّمل ، وعلَّم الحفَظة من الملائكة جميعَ الألسنة حتى كتبوا بكلّ خطّ ، ونطقوا بكلّ لسان . وأنطقَ ذئبَ أهبانَ بن أوس[5] .

---

(١) هي قراءة أبي وعبد الله بن مسعود في الآية ٦ من سورة الأحزاب . تفسير أبي حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) هذه الكلمة والتي قبلها من سائر النسخ .

(٤) الكلمة من سائر النسخ .

(٥) أهبان هذا : أحد الصحابة ، ذكروا أن الذئب كلمه ثم شهد بالرسول . =

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنة ، وكذلك أطفالهم والمجانين [منهم[1]] ، يتكلّمون ساعةً يدخلون الجنة بلسانِ أهل الجنّة ، على غير الترتيب والتنزيل ، والتعليم على طول الأيام والتلقين . فكيف يتعجّب الجاهلون من إطلاق إسماعيل بالعربية على غير تعليمِ الآباء ، وتأديب الحواضن ؟!

وهذه المسألة ربّما سأل عنها بعض القحطانية، ممن لا علم له، بعض العدنانية ، وهي على القحطانيّ أشدُّ . فأمّا جواب العدنانيّ فسببُ النِّظام سهلُ المخرج ، ٢٦ و قريبُ المعنى ؛ لأنّ بني قحطان لا يدّعون لقحطانَ نُبوّة[2] فيعطيه الله مثلَ هذه الأعجوبة .

وما الذي قسَم الله ـ عزّ اسمه ـ بين الناس من ذلك ، إلّا كما صنع في طينة الأرض ، فجعل بعضها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتاً ، وبعضه ذهبًا ، وبعضه نحاسًا ، وبعضه رَصاصًا ، وبعضه حديدًا ، وبعضه تراباً ، وبعضه فخّارًا . وكذلك الزّاج[3] ، والنّفْرة ، والزّرنيخ ، والمَرْتك ، والكبريت[4] ، والقار[5]

= انظر تفصيل ذلك في ثمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣ / ٥١٣ / ٤ / ٧/٨٠ : ٥٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ والإصابة ٣٠٥ . في الأصل : «لمجار» . صوابه في سائر النسخ والمراجع المتقدمة .

(١) التكملة من م ، ف

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « يقوم » ، تحريف .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الزجاج » . تحريف

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « والطين » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) في بعض أصول ن وس : « والغار » تحريف والقار : الزفت .

والثوتيا ، والنوشادُر[1] ، والمرقَشِيثا ، والمِغناطيس .

ومَنْ يُحصى عددَ أحزاء الأرض[2] ، وأصنافَ الفِيزَ ؟!

وإذا كان الأمر على ما وصَفْنا فالبَنَوىُّ خراسانىّ . وإذا كان الخراسانىّ مولًى ، والمولَى عربىٌّ - فقد صار الخراسانىُّ والبَنَوىُّ والمولى والعربىُّ واحدًا

وأدنى ذلك أن يكون الذى معهم من خصال الوِفاق غامراً ما معهم من خِصال الخِلاف ، بل هم فى معظم الأمر وفى رُكْن الشأن[3] وعمود النَّسب متَّفقون . والأتراكُ خراسانيةٌ وموالى الخُلفاء قُصرةٌ[4] ، فقد صار التركىّ إلى الجميع راجعًا ، وصار شرفُه إلى شرفهم رائداً .

وإذا عُرِف سائرُ ذلك سامحت النُّفوس ، وذهب التَّعقيد[5] ، ومات الضِّغن ، وانقطع سبب الاستقال ؛ فلم يبقَ إلَّا التحاسُد والتَّنافسُ الذى لا يزال يكون بين المتقاربَيْن فى القَرابة وفى المجاورة .

على أنَّ التَّوازُرَ والتآلُفَ[6] فى القرابات وفى بنى الأعمام والعشائر ، أفشى وأعمُّ من البُعداء .

---

(١) انظر حواشى الحيوان ٣ : ٣٧٧ و ٥ : ٣٤٩ .

(٢) وكذا فى بعض أصول ن . وفى سائر النسخ : « جواهر الأرض » .

(٣) كبر الشأن ، بكسر الكاف وضمها : معظمه . وبهما قرئ قوله تعالى : « والذى تولى كبره منهم » .

(٤) قصرة ، بالضم ، أى أدنى إليهم ، كما يقال هو ابن عمى قصرة ، أى دانى النسب وفى الأصل وبعض أصول ن : « صرة » .

(٥) التعقيد كناية عن الضغينة المعقودة ، ويقولون للرجل إذا سكن غضبه : قد تحلت عقده . وفى الأصل وبعض أصول ن : « التعقل » ، تحريف .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « فإن التوازن فى الفساد » ، صوابه فى سائر النسخ

وتَخوّفِ التَّخاذل وحبِّ التناصُر ، والحاجةِ إلى التّعاون ـ انضمّ بعضُ القبائل فى البوادى إلى بعض ، ينزلون معًا ويَظْعَنون معًا . ومن فارق أصحابَه أقلّ[1] ، [و] من نَصر ابنَ عمّه أكثر . ومَن اغتبط بنعمتِه وتمنّى بقاءها والزيادة فيها أكثر ممّن بَغاها الغوائلَ[2] ، وطلبَ اقتطاعَها وزوالَها . ولا بدّ فى أضعاف ذلك من بعض التّنافُس والتخاذُل ، إلّا أنّ ذلك قليلٌ من كثير .

وليس يجوز أن تصفُوَ الدُّنيا وتَنْقَى من الفساد والمكروه[3] حتّى يموت جميعُ الخلائق ، وتستوىَ لأهلها ، وتتمهّد لسكّانها على ما يشتهون ويهوَوْن ؛ ٢٦ ظ لأن ذلك من صفة دار الجزاء ، وليس كذلك صفةُ دارِ العمل .

---

(١) فى الأصل : « أولى » .

(٢) الغوائل : المهلكات . ويقال بغيتك الشىء : طلبته لك وتحنيته . وفى التنزيل العزيز : « يبغونكم الفتنة » ، أى يبغون لكم .

(٣) نقى الشىء ينقى : صار نقيًا خالصا .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب كنتُ كتبتُه أيّامَ المعتصم بالله[1] ، رضى الله عنه ، فلم يصل إليه ، لأسبابٍ يطول شرحُها ، فلذلك لم أعرِضْ للإخبار عنها . وأحببتُ أن يكونَ كتاباً قَصْداً ، ومذهباً عَدْلاً ، ولا يكونَ كتابَ إسرافٍ فى مديح قوم ، وإغراقٍ فى هجاء آخرين . وإن كان الكتابُ كذلك شابَهَ الكذِب ، وخالطه التزَيُّد ، وبُنِى أساسُه على التكلُّف ، وحرج كلامُه مَحرجَ الاستكراه والتَّعليق[2] .

وأنفعُ المدائح[3] للمادح وأجداها على الممدوح ، وأبقاها أثراً وأحسنُها ذِكرا : أنْ يكون للمديحُ صِدقاً ، والظّاهر[4] من حالِ الممدوح موافقاً ، وبه لائقاً ، حتّى لا يكونَ من المعبَّر عنه والواصفِ [له[5]] إلاّ الإشارةُ إليه ، والتنبيهُ عليه .

وأنا أقول : إن كان لا يمكن ذلك فى مناقب الأتراكِ إلاّ بذِكرِ مثالب سائر الأجناد ، فتَرْكُ ذِكرِ الجميعِ أصوب ، والإضرابُ عن [هذا الكتاب

---

(١) بويع المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨ . وتوفى بسر من رأى سنة ٢٢٧ . وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق .

(٢) التعليق ، المراد به هنا . كما يعلق الباب تعليقا . وفى جميع الأصول «التعليق» بعين مهملة .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن ، « للمدح » ولا تساوق سائر الكلام

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « والظاهر » ، والوجه من سائر النسخ التى سقطت منها كلمة « من » بعدها . .

(٥) الكلمة من سائر النسخ ، وقد سقطت من بعض أصول ن .

أحزم ، وذكر الكثير من[1]] هذه الأصناف بالجميل[2] ، لا يقوم بالقليل[3] من ذكر بعضهم بالقبيح ، لأنَّ ذِكر الأكثر بالجميل نافلةٌ ، وبابٌ من التطوُّع ، وذِكرَ الأقلِّ بالقبيح معصية ، وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أجدَى علينا من كثير التطوُّع .

ولكلٍّ نصيبٌ من النَّقص ، ومِقدارٌ من الذُّنوب ؛ وإنَّما يتفاضَل الناسُ بكثرة المحاسن وقلّة المساوى . فأمَّا الاشتمال على جميع المحاسن ، والسَّلامةُ من جميع المساوِى دقيقِها وجليلِها ، وظاهِرها وخفيِّها ، فهذا لا يُعرف .

وقد قال النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلُمْه ... على شَعَثٍ ، أىُّ الرِّجالِ المهذَّبُ

وقال حَرِيش السَّعدىّ[4] :

أح لى كأيِّم الحيـــاةِ إخاؤه ... تلوّنُ ألواناً علىّ حطوبُها
إذا عبتُ منه خَلّةً فتركتُـــه ... دعتنى إليـه خَلّةٌ لا أعيبها

وقال بشّار[5] : ٢٧ و

إذا كنتَ فى كلِّ الأمور معاتباً ... صديقَكَ لم تَلقَ الذى لا تعاتبُه

---

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) فى الأصل : « أجل » ، صوابه من سائر النسخ

(٣) فى الأصل : « لا يقوم الكثير من ذكر بعضهم بالجميل بالقليل » ، وتوجيه العبارة من باقى النسخ .

(٤) فى الأصل : « مرس السعدى » ، وأثبت ماقى سائر النسخ . والبيتان بدون نسبة فى عيون الأخبار ٣ : ١٧ .

(٥) ديوان بشار ١ : ٣٠٩ وحماسة البحترى ١٠٠ وحماسة ابن الشجرى ١٤٣ والأغانى ٣ : ٤٧ والتمثيل والمحاضرة للثعالبى ٧٤ .

فعِشْ واحدا أو صِلْ أخاكَ فإنه مُقارِفُ ذنبٍ مَرَّةً ومُجانِبُه
إذا أنتَ لم تشرَبْ مِرارًا على القذَى ظَمِئتَ وأيُّ الناس تَصفو مشارِبُه

وقال مطيع بن إياس الكِنانيّ :

ولئن كنتَ لا تصاحبُ إلاّ صاحباً لا تَزِلُّ ، ما عاشَ ، نَعْلُه
لم تَجِدْه ولو جَهِدتَ وأنّى بالذى لا يكونُ بُوجَد مثلُه
إنّما صاحبي الذى يَغفِرُ الذّنـ ـبَ ويكفيه من أخيه أقلُّه

وقال محمد بن سعيد[1] ، وهو رجل من الجُنْد :

سأشكرُ عَمراً إن تراخَتْ مَنِيَّتِي أيادِيَ لم تُنْمَنْ وإنْ هى جَلَّتِ
فتًى غيرُ محجوبِ الغِنى عن صديقه
ولا مُظهِرِ الشّكوى إذا النعلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتى من حيثُ يَخفَى مكانُها فكانت قَذًى عينَيه حتّى تَجلَّت

---

(١) فى معجم الشعراء للمرزبانى ٤٢١ أنه محمد بن سعد الكاتب التيمى . وأنه شاعر بغدادى . وقيل الشعر لأبى الأسود الدؤلى وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص فبينا هو يحدث إذ ظهر كم قميصه من تحت جبته وهو خرق ، فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب ، فقال هذا الشعر . وقيل الشعر لعبد الله بن الزبير الأسدى ، وأنه أتى عمر بن أبان بن عثمان فسأله فأعطاه . الآلى ١٦٦ . ونسب إلى إبراهيم بن العباس الصولى فى مجموعة المعانى ٩٦ ومعجم الأدباء ٥ : ٢٥٨ مرجليوث وابن خلكان ٢ : ٢٤٧ . وقيل لعمرو بن كيل يمدح عمرو بن دكوان وكان تدرأه وعليه جبة بلا قميص فتشمع له حتى ولى الحرب بالبصرة ، فأصاب فى ولايته مالا عظيما أو هو رجل من أشراف المدينة أنعم عليه عمرو بن سعيد بن العاص وكان قد ظهر كم قميصه من تحت جبته شرح التبريزى للحماسة . والأبيات بدون نسبة فى الحماسة ١٥٨٩ بشرح المرزوقى وحماسة البحترى ١٥٩ والكامل ١٢٣ .

فإذا كان الخلطاء[1] من جمهور الناس، وأصحاب المعايش من دَهْماء الجماعة، يرون ذلك واجباً وتدبيراً فى التعامل، على ما هم فيه من مشاركة الخطأ للصواب، وامتزاج الضَّعف بالقوَّة، فلسنا نشكُّ أنَّ الإمامَ الأكبرَ والرَّئيس الأعظم، مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة، والتَّمام فى الحلم والعلم، والكمال فى الحزم والعَزْم، مع التمكين والقُدرة، والفَضيلةِ والرِّياسة [والسيادة[2]]، والخصائص التى معه من التَّوفيق والعِصمة، والتأييد وحسن المعونة، أنَّ الله[3] جلَّ اسمه لم يكن ليحلّه باسم الخلافة، ويحبوَه بتاج الإمامة، وبأعظم نعمةٍ وأسبغها، وأفضل كرامةٍ وأسناها، ثم وصَلَ طاعته بطاعته، ومعصيتَه بمعصيته، إلَّا ومعه من الحلم فى موضع الحلم، والعفو فى موضع العفو، والتَّغافل فى موضع التَّغافل، مالا يبلُغه فضلُ ذى فضل، ولا حِلْمُ ذى حلم.

ونحن قائلون، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله، فيما انتهى إلينا فى أمر الأتراك:

زعم محمدُ بنُ الجهم، وثمامةُ بن أشرس، والقاسمُ بن سيَّار، فى جماعةٍ ٢٧ ظ
ممن يَمشى دارَ الخلافة، وهى دار العامَّة[4]، قالوا جميعا:

بينا حُمَيد بنُ عبد الحميد جالسا ومعه نخشاد الصُّغدىّ[5]، وأبو شجاع

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن: «الخطاء»، صوابه فى سائر النسخ.

(٢) التكملة من سائر النسخ.

(٣) فى الأصل، وبعض أصول ن: «وأن الله»، وفى سائر النسخ: «لم يكن الله».

(٤) ف فقط: «الإمامة».

(٥) ن، س: «يخشاد»، ج، ف: «إخشيد الصغدى».

[شيب[1]] بن بحار احدای التاخیّ ، ویحیی بن معاذ ، ورجال من المذودین المتقدّمین فی العلم بالحرب [من أصحاب التجارب والمراس ، وطول المعالجة والمعاناة[1]] فی صناعات الحرب[2] ، إذ خرج رسولُ المأمون فقال لهم : تقول لکم متفرّقین[3] ومجتمعین : لیکتبْ کلُّ رجلٍ منکم دعواه وحجته ، ولیقُلْ أیُّنا أحبُّ إلی [کلّ[4]] قائدٍ منکم إذا کان فی عُدَّته من صحبه وثِقاته : أنْ یَلقَی مائةَ ترکیٍّ أو مائةَ خارجیٍّ ؟ فقال القوم جمیعًا : [لأنْ[5]] نلقَی مائة ترکیٍّ أحبُّ إلینا من أن نَلقی مائة خارجیّ ! وحُمید[6] ساکت .

فلما فرغ القومُ [جمیعًا] من حُجَجهم[7] ، قال الرّسولُ : قد قال القوم فقُلْ

---

(١) التکملة من سائر النسخ .

(٢) فی سائر النسخ : « صناعة الحرب » وکذا فی بعض أصول ن

(٣) فی سائر النسخ وبعض أصول ن : « مفترقین » .

(٤) التکملة من سائر النسخ .

(٥) التکملة من ف فقط .

(٦) هو أبو عاصم حمید بن عبد الحمید الطوسی . أحد أمراء الدولة العباسیة وقوادها وأجوادها ، وهو أحد من وطد الخلافة للمأمون بهزیمته لإبراهیم بن المهدی وکان لأبی العتاهیة وعلی بن جبلة وأبی تمام فیه مدائح . کما رثاه أبو تمام ورثی به محمداً وقحطبة وأما نصر بقوله :

کذا فلیجل الخطب ولیفدح الأمر فلیس لعین لم یفض ماؤها عذر

وقد قتل بشربة سمها له جبریل بن بختیشوع سنة ٢١٠ . الأغانی ١٩ : ١٠٠ – ١١٤ والطبری ٩ : ٢٤٥ – ٢٥٤ وأسماء المقاتلین من نوادر المخطوطات ٢ : ١٩٩ – ٢٠٠ .

(٧) فی الأصل وبعض أصول ن « حجتهم » ، وأثبت ما فی سائر النسخ وکلمة « جمیعاً » قبله تکملة من ف وبعض أصول ن .

واكتبْ قولَك ، وليكن حجةً لك أو عليك . قال : بل ألقى مائة خارجيٍّ أحبُّ إليَّ ؛ لأنّى وجدت الخصالَ التى يَفضُل بها الخارجيُّ جميعَ القاتلة غيرَ تامّةٍ فى الخارجيّ ، ووجدتُها تامّةً فى التُّرك . فَفَضْل التركيِّ على الخارجيّ بقَدْر فضل الخارجيِّ على سائر القاتلة ، ثمَّ بانَ التركيُّ عن الخارجيِّ بأمورٍ ليس فيها للخارجيِّ دعوى ولا متعلَّق . على أن هذه الأمورَ التى بان بها التركيُّ عن الخارجيّ ، أعظمُ خطراً وأكثر غنما ، ممّا شاركه الخارجيُّ فى بعضها[1] .

ثم قال حُميد : والخصال التى يَصُولُ بها الخارجيُّ على سائر الناس صِدق الشَّدَّة عن أوّلِ وهلة ، وهى الدَّعة التى يَبلُغون بها ما أرادوا ، وينالون الذى أمّلوا[2] .

والثانية : الصَّبر على الحَرب وعلى طول الشَّرى ، حتَّى يُصبِح القومُ [الذين مَرقوا بهم[3]] غارّين[4] فيهجموا عليهم وهم بسوء[5] ، ولحمٌ على وَضَم[6] ، يتعجَّلونهم عن الرَّوِيَّة ، وعن ردّ النفس عن النَّزوة والجولة ؛ لا يظنُّون أنّ أحدًا يقطع فى ذلك المقدارِ من الزَّمان ذلك المقدارَ من البِلاد .

---

(١) ح ، ف : « فى بعضه » .

(٢) ج ، ف : « وينالون بها ما أملوا » .

(٣) التكملة من سائر النسخ . والمروق : المرور بسرعة ، كما يمرق السهم من الرمية

(٤) غارّين : غافلين .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « بشر »

(٦) الوضم : جمع وضمة ، وهو كل شىء يوضع عليه الخشب من خشب أو حصير يوقى به الأرض . والقعد على الوضم مثل للضعف وعدم الامتناع .

والثالثة : أنّ الخارجيّ موصوفٌ عند[1] الناس بأنّه إن طَلَبَ أدرَكَ ، وإن طُلِبَ فات .

والرابعة : خِفّة الأزواد وقلّة الأمتعة ، وأنّها تجنب الخيلَ[2] وتركبُ البغال ، وإن احتاجت أمسَتْ بأرضٍ وأصبحَتْ بأخرى ، وأنّهم قوم حين خَرجُوا لم يخلّفوا الأموالَ الكثيرة ، والجِنانَ الملتفّة ، والدُّور المشيّدة ، ولا ضياعًا ولا مُستَغَلّات ، ولا جوارىَ مطهّمات[3] ، و أنهم[4] إلا سَلَب ٢٨ و
لهم ولا مالَ معهم فيرغبَ الجندُ فى لقائهم ، وإنّما هم كالطّير لا تذّخر ولا تهتمّ لغد ، ولها فى كلّ أرضٍ من المياه والأقوات ما تتبلّغ به[5] ، وإن لم تجد ذلك فى بعض البلاد فأجنحتُها تقرّب لها البعيد ، وتسهّل لها الحزون . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القِرَى والتطعّم ، وإنْ تمنّع عليهم ففى بنات شحّاج وبنات صهّال[6] ، وحقّة الأثقال على طُول التعب ، ما يسهّل أقواتها ، ويكثّر من أرزاقها .

---

(١) وكذا فى بعض أصول ن . وفى سائر النسخ : « بعد » .

(٢) أى تقودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٣) المطهم من الناس والخيل : الحسن التام كل شىء منه على حدته . فهو بارع الجمال

(٤) التكملة من ج . ف وبعض أصول ن .

(٥) ج . ف وبعض أصول ن : « من المياه والبزور ما يقوتها »

(٦) بنات شحاج . هى البغال . لأنها تشحج بصوتها . وبنات صهال . هى الأفراس . والفرس صهيل . ويقال بنات شاحج أيضاً . وبنات صهال لم ترد فى اللسان ولا القاموس . ولكن وردت فى الزهر ١ : ٥٢٥ .

والخامسة : أن الملوك إنْ أرسلوا إليهم أعدادهم ليكونوا فى خفّة أوزارهم[1] وأثقالهم ، وليقوَوْا على التنقُّل كقوّتهم ، لم يقوَوْا عليهم : لأنّ مائةً من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج ؛ وإن كثّفوا الجيشَ بالجيش ، وصاعفوا العدد [بالعدد[2]] ثقُلوا عن طلبهم ، وعن الفَوْت إن طلبهم عدوُّهم . ومتى شاء الخارجىُّ أن يقرب منهم ليتطرّفَهم[3] أو ليصيب الغِرّةَ منهم ، أو ليسلُبَهم ، فَعَل ذلك ثقةً بأنه يعلم عند الفرصة[4] ورؤية العَورة ، ويمكنه الهربُ عند الخوف . وإنْ شاء كبَسَهم ليقطع نظامَهم ، أو ليقتطِع[5] القطعةَ منهم .

قال حُميد : فهذه هى مَفاخرُهم وخصالهم ، التى لها كرِه القوّاد لقاءهم .

قال قاسم بن سيّار : وخَصلة أخرى ، وهى التى رعَبت القلوبَ وخلَعتْها ، وقصمت العزائم وفسخَتْها ، وهو ما تسمع الأحنادُ ومقاتِلة العوامّ ، مِن ضرب المثَل بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخيـــــلُ والمحاذِر القِرى
رأى الضَّيفَ مثـــلَ الأزرقىّ المخفَّفِ[6]

---

(١) الأوزار : جمع وزر بالكسر ، وهو الحمل الثقيل ف ، ج وبعض أصول ن : « أزوادهم » ، وهو جمع زاد .

(٢) التكملة من سائر الأصول .

(٣) التطرف . الإغارة من حول العسكر .

(٤) فى الأصل : « وليعلم ذلك فانه يعلم عن الفرصة » ، وصوابه من سائر النسخ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « ليقطع » .

(٦) المخفف : الذى خفف فرسه بالتخفاف ، وهو ما حلل به من سلاح وآلة تقيه الجراح .

وكقول الآخر :

وقَلْبٍ ودٍّ حالَ عن عَهدِهِ والسَّيْف ينبو بيدِ الشَّارى

وكقول الآخر :

لقاء الأُسدِ أهونُ من لِقاهُ إذا التحكيم يسهر بالأصيلِ

هذه زيادة قاسم بن سيّار .

فأمّا حُميد فإنّه قال :

الشِّدَّةُ الأولى التركيُّ فيها أحدُ [أثراً ، وأجمع[1]] أمراً ، وأحكم شأنا ؛
٢٨ ظ لأنّ التركيَّ من أجْلِ أن تَصدُقَ شَدَّتُه ويتمكَّن عزمُه ، ولا يكونَ مشتركَ العزم ولا منقسِمَ الخواطر ، قد عوّد بِرذَونَه ألّا يثنى وإنْ ثناه ، أن يملأ فروجَه[2] للأمر يديره مرّةً أو مرّتين ، وإلّا فإنّه لا يدع سَنَنه ، ولا يَقطع ركضه . وإنّما أراد التركيُّ أن يؤنس نفسَه من البَدَوات[3] ، ومن أن يعتريه التكذيبُ بعد الاعتزام ، لهَوْل [اللقاء[4]] ، وحبِّ الحياة : لأنّه إذا علم أنه قد صيَّر بِرذَونَه إلى هذه الغاية حتّى لا ينثنيَ ولا يُحيبه إلى التصرُّف معه إلّا بأنْ يصنع شيئاً بين العنَفَين فيه عطفه ، لم يُقدِم على الشِّدَّة إلّا بعد إحكام الأمر ، والبصر

---

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) الفروج : مابين قوائم الفرس ، وملؤها كناية عن الإسراع وشدة العدو حتى لاتكاد تبدو .

(٣) البدوات : الخطرات والآراء تبدو وتظهر .

(٤) موضع هذه الكلمة بياض فى الأصل ، وإثباته من سائر النسخ . وفى الأصل: « لطول » ، تحريف

بالعورة[1] . وإنّما يريد أن يُشَبِّه نفسه بالمحرَج الذى إذا رأى أشدَّ القتال[2] لم يَدَعْ جُهدا ولم يدّخر حيلة ، ولينفِرَ عن قلبه خواطرَ الفِرار ، ودواعىَ الرُّجوع .

وقال : الخارجىُّ عند الشِّدَّة إنّما يعتمد على الطِّعان ، والأتراك تطعن طعنَ الخوارج ، وإن شدّ منهم ألفُ فارسٍ فرَموا رِشْقاً واحداً صرعوا ألفَ فارس ، فما بقاء جيشٍ على هذا النَّوع من الشِّدَّة !

والخوارج والأعراب ليست لهم رِماية مذكورة على ظهور الخيل ، والتركىُّ يرمى الوحشَ والطَّير ، والبرجاس[3] ، والنَّاسَ[4] ، والمجَنَّبة ، والنُّشَّلَ الموضوعة ، ويَرمى وقد ملأ فُروجَ دابّته مُدبِراً ومُقبلاً ، ويَمنةً ويَسرة ، وصُعُدا وسُفْلا ، ويرمى بعشرة أسهم قبل أن يُفوِّق الخارجىُّ سهماً واحداً[5] ، ويركض دابّته منحدراً من جَبَل ، أو مستعِلاً إلى بطن واد بأكثرَ مما يمكن الخارجىَّ على بَسيط الأرض .

والتركىُّ أربعة أعين[6] : عينان فى وَجْهه ، وعينان فى قفاه . والخارجىُّ

---

(١) فى الأصل : « والنظر إلى العودة » وكذا فى بعض أصول ن ، والصواب من سائر النسخ .

(٢) فى الأصل : « إذا آثر القتال » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٣) سبق تفسيره فى ص ٢١

(٤) انظر ما سيأتى فى ص ٤٨ س ٦ و ٥٩ س ٢

(٥) فوق السهم : جعل له فوقا ، والفوق بالضم : موضع الوتر من السهم ، والمراد وضع السهم فى الفوق .

(٦) كذا بتأنيث الأربعة مع العين المؤنثة ، وهو وجه جائز فى العربية مذكور فى المطولات انظر العباب ٤ : ٦٢ حيث ذكر ابن هشام أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثا ، أو بالعكس ، فإنه يجوز فيه وجهان

عيبٌ فى مُستدبَر الحرب ، وللخراسانىّ عيبٌ فى مُستقبَل الحرب . فعيب الخراسانيّة أنّ لها جَولة عند أوّل الالتقاء[1] ، وإن ركبوا [كُتَامهم[2]] كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يَثُوبون ، وذاك [بعد[3]] الخِطار بالعسكر ، وإطماع العدوّ فى الشِّدّة .

والخوارج إذا ولّوا فقد ولّوا وليس لهم بعد الفَرّ كَرّ ، إلّا ما لا يُعَدّ . والتركىّ ليست له جولةُ الخراسانىّ ، وإذا أدبرَ فهو السَّهْمُ النافع ، والحَتْف القاضى ؛ لأنه يصيب بسهمه وهو مدبرٌ كما يصيب به وهو مُقْبِل ، ولا يُؤمَن وَهَقه[4] ، ولا انتسافُ الفَرَس[5] ، واختطافُ الفارس بتلك الرَّكضة .

٢٩ و ولم يفُتْ من الوَهَق فى جميع الدَّهر إلّا للهلّب بن أبى صُفرة ، والحَريش ابن هلال[6] ، وعبّاد بن الحُصَين[7] . ورُبّما رَمى بالوهَق وله فيه تدبير آخر

---

(١) فى الأصل : « بين أول الالتقاء » . ووجهه من سائر النسخ .

(٢) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ ما عدا ف ، ففيها : « أكسادهم » بالجمع . ويقال ركب كساه : وقع على قفاه ، والمراد أدبروا وتهزموا وكس ، كل شىء : مؤخره . (٣) إثباتها من سائر النسخ .

(٤) الوهق ، بالتحريك : حبل شديد الفتل يرمى وفيه أنشوطة . فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ، وجمعه أوهاق . والكلام بعده إلى كلمة « المرمى » ساقط من ج ، ف ، وبعض أصول ن .

(٥) انتسف الشىء : اقتلعه . قال أبو النجم :

وانتسف الخالب من أندابه إغباطنا للبس على أسلابه

(٦) فى الاشتقاق ٢٥٧ : « الحريش بن هلال بن قدامة ، كان من فرسان بنى تميم ، وله أيام بخراسان مشهورة » .

(٧) هو عباد بن الحصين بن يزيد التميمى ، كان شجاعا راثياً . جمهرة ابن حزم ٢١٣ والاشتقاق ٢٠٢ والبيان ٤ : ٣٦

وإن لم يَجْنُب المرميَّ معه، يوهم الجاهلَ أنّ ذلك إنما كان لخُرق التُّركي[1]، أو لحِذْق المرميّ.

قال: وهم علَّموا الفرسانَ حَمل قوسَين وثلاثة قِسِيّ، ومن الأوتار على حسبِ ذلك.

قال: والتركيُّ في حال شَدّته، معه كلُّ شيء يحتاج إليه لنفسه وسلاحه ودابّته وأداة دابّته. فأمّا الصّبر على الخَبَب وعلى مواصلة السَّفر، وعلى طُول السُّرى وقَطع البلاد، فعجيبٌ جداً.

فواحدةً: أنّ فرسَ الخارجيِّ لا يصبر صَبر بِرذَون التُّركيّ.

والخارجيُّ لا يُحسِن أن يعالج فرسَه إلّا معالجةَ الفُرسان لخيولهم، والتُّركي أحذق من البيطار، وأجود تقويماً لبِرْذَونه على ما يريده من الرِّياضة[2] [وهو استنتاجه[3]]، وهو زبَده فِلزّا، وتتبّعه إنْ سماه[4]، وإنْ ركضَ ركض خلفه. وقد عوّده ذلك حتّى عرفه، كما يعرف الفرس أقدِم[5]،

---

(١) في الأصل: «لحذق» صوابه في ن، س. والخرق، بالضم: الجهل والحمق، ونقيض الرفق.

(٢) الرياضة: جمع رائض. وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذللها. وفي الأصل وبعض أصول ن: «الرياضة»، صوابه من سائر النسخ.

(٣) موضعها بياض في الأصل، وإثباتها من النسخ.

(٤) في الأصل وبعض أصول ن: «وثبته». صوابه من سائر النسخ.

(٥) أقدم: زجر للفرس، وكذا اقدم ومثله اجدَم وهجدَم، كلها زجر للفرس. في معظم النسخ: «احدم» بالجيم، وهذه بوصل الهمزة وفتح الدال.

والنّاقة حَلْ[1] ، والجمل جَاءِ ، والسمل عَدَسْ ، والحمار ساسا ، وكما يعرف المجنون فقه والصبيُّ اسمه .

ولو حصّلت عمر التركيِّ وحسبت أيامه لوجدتَ حنوّه على ظهر دابّته أكثرَ من جلوسه على ظهر الأرض . والتركيُّ يركب فحلا أو رَمَكة ، ويخرج غازيًا أو مسافرًا ، أو متباعدًا في طلب صيدٍ ، أو سببٍ من الأسباب ، فتقمه الرَّمَكة وأفلاؤها ، إن أعياه اصطيادُ الناس اصطاد الوحش ، وإن أخفقَ منها أو احتاج إلى طعامٍ فَصَدَ دابّةً من دوابّه ، وإن عَطِش حَلب رَمَكة من رِماكه ، وإن أراح واحدةً تحته ركب أخرى من غير أن ينزل إلى الأرض . وليس في الأرض أحدٌ إلّا وبدنه ينقص على اقتيات اللّحم وحدَه غيرُه ؛ وكذلك دابّته تكتفي بالقَفْر[2] والنّشّ والشّعر ، لا يظلّها من شمس ولا يكنّها من برد .

قال : وأما الصّبر على الحَسَب فإنّ الشّعريّين ،[3] والفرانقيين[4] ، والخصيان والخوارجَ ، لو اجتمعت قواهم في شخص واحد لما وفَوْا بتركيٍّ واحد[5] .

---

(١) ويقال : « حلى » أيضاً كما في بعض النسخ . وقال أبو النجم .

* وقد حدوناها بحوب وحل *

(٢) القفر ، ضم العين والقاف : أصل البقل والقصب والردى مادام أيبس مجتمعاً في الأصل : « بالعفر » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) الشعريون : نسبة إلى الشعر ، وهو واحد ثغور الشام ، ومن أشهر مدنه أنطاكية وطرسوس والمصيصة ، وأصل أهلها من الروم

(٤) نسبة إلى الفرانق ، يعني بهم عمال البريد ويبدو أنهم كانوا من غير العرب . والفرانق : الذي يدل صاحب البريد على الطريق ، معرب « پرْوانك » .

(٥) يقال وفى الشيء الشيء ، ووفى به : عادله . وفي الأصل وبعض أصول ن : « لم يوفوا » ، تحريف

والتركيّ لا يبقى معه على طول الغاية إلّا الصميم من دوابّه[1] . [و] الذى يقتله التركيّ بإتعابه له ، وبنعيه[2] عند غزاته ، هو الذى لا يصبر معه فرس الخارجيّ ، ولا يبقى معه كلّ يردَون بُخارىّ[3] . ولو سابر خارجيًّا لاستفرغ ٣٩ ظ وُسْته قبل أن يبلغ الخارجيّ عَدْوَه[4] .

والتُّركى هو الراعى ، وهو السائس وهو الرائض ، وهو النَّحّاس ، وهو البيطار ، وهو الفارس . والتركيّ الواحدُ أمّةٌ على حِدة .

قال : وإذا سار التركيّ فى غير عساكر الترك ، فسار القومُ عَشْرَةَ أميالٍ سار عشرين ميلا ؛ لأنه ينقطع عن العسكر يَمنة ويَسرة ، ويُسرع فى ذُرى الجبال ، ويَستبطن قُعور الأودية فى طلب الصيد ؛ وهو فى ذلك يرى [كلّ[5]] مادبّ ودَرَج ، وطارَ ووقع .

قال : والتركيّ لم يَسِر فى العساكر سيرَ النّاس قطّ ، ولا سارَ مستقيما قطّ .

قالوا : وإذا طالت الدُّلْجة واشتدّ السير ، وبَعُد المنزل ، وانتصف النّهار ، واشتدّ التّعب ، وشملَ الناسَ الكَلال[6] ، وعَمّت المتسايرون فلم ينطقوا .

---

(١) الصميم : الخالص المحض . فى الأصل : « الاطول الصميم » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى بعض أصول ن : « ويقيه » .

(٣) نسبة إلى بخارى . وفى بعض أصول ن : « تجارى »

(٤) العدو : مايجرى بسهولة ويسير كلفة . فى سائر النسخ : « لاستفرغ جهده » .

(٥) التكملة من سائر النسخ .

(٦) الكلال . التعب والإعياء . ج ، ف وبعض أصول ن : « الكلام » ، تحريف

وقطعهم ما هم فيه عن التشاغل بالحديث ، وتفسخ كل شيء من شدة الحر ، وجمد كل شيء من شدة البرد[١] ، وتمنى كل جليد القوى على طول السرى[٢] أن تطوى له الأرض ، وكلما رأى خيالا أو أبصر علما[٣] سر به واستبشر ، وظن أنه قد بلغ المنزل ؛ فإذا بلمعه الفارس ترك وهو متفحج[٤] كأنه صبي محفوف ، ينئ أنين المريض ، ويسترخ إلى التئاوب . ويتداوى مما به بالتمطى والتضجع . وترى التركي في تلك الحال وقد سار صفف ما ساروا وقد أتعب مسكبه كثرة النزع[٥] . يرى قرب المنزل عيانا[٦] أو ظنيا ، أو عرض له تعلب أو أرنب ، فيركض ركض مبتدئ مستأنف ، كأن الذي سار ذلك السير تعب ذلك التعب غيره .

وإن بلغ الناس وادياً فازدحموا على مسلكه أو [على[٧]] قنطرته ، بطن يردونه فأقحمه[٨] ثم طلع من الجانب الآخر كأنه كوكب . وإن انتهوا إلى عقبة صعبة ترك السنن[٩] وذهب في الجبل صعدا ، ثم تدلى من موضع يتحير

---

(١) ج ، ف : « وتفسخ كل شيء من شدة البرد » فقط

(٢) ف فقط : « قوى على طول السرى » .

(٣) أبصر ، من الأصل فقط . وفي الأصل : « عطاء » موضع « علما » ، صوابه من باقي النسخ .

(٤) متفحج : قد فتح ما بين رجليه .

(٥) النزع في القوس : مد وترها للرمي بسهامها

(٦) في الأصل وبعض أصول ن : « عترا » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٧) التكملة من سائر النسخ .

(٨) بطنه بطنا : ضرب بطنه

(٩) السنن : نهج الطريق وسمته . في الأصل ، ف : « السير » ، صوابه في سائر النسخ .

عنه الوعيل ؛ وأنت تحسه محاطراً بنفسه ، للذى تَرَى من مَظْلمه . ولو كان فى كلّ ذلك محاطراً لما دامت له السلامة مع تتابع ذلك منه .

قال : ويعجز الخارجىّ بأنّه إذا طُلب أُدرك ، وإذا طُلب لا يُدرك . ٣١ و والتركىّ ليس يَخرج إلى أنْ يفوت ؛ لأنه لا يُطلب ولا يُرام . ومَن يروم [ما لا يطمع فيه] ؟!

فهذا . على أنّ قد عدنا أنّ العلّة التى عمّت الخوارجَ بالنّحدة استواء حالاتهم فى الدّيانة ، واعتقادُهم أنّ القتال دِين ؛ لأنّا حين وجدنا السّجستانىّ والطّراساني والجزَرىّ واليمانىّ والمغربىّ والمانىّ ، والأزرقىّ منهم والنّجْدىّ[1] والإباضىّ والصُّفْرىّ ، والمولى والعربىّ ، والعجمىّ والأعرابىّ ، والعَبيد والنّساء ، والحائك والفَلّاح ، كلّهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين البلدان[2] ـ علمنا أنّ الدّيانة هى التى سوّتْ بينهم ، ووفّقت بينهم فى ذلك . كما أنّ كلّ حجّام فى الأرض من أىّ جنس كان ، ومن أىّ بلد كان ، فهو يحسّ

---

(١) نسبة إلى نجدة بن عامر ـ وقيل عاصم ـ الحنفى وهم النجدات أيضاً وكان نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع بن الأزرق من الخوارج ، فصار نافع إلى البصرة ، ونجدة إلى اليمامة . وذلك فى سنة ٦٤ الملل والنحل ١ : ١٦٥ والطبرى ٧ : ٥٦ ـ ٥٧٠ ، ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب الزبير بجيل عد جيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعماله بالبحرين واليمامة وعمان وهجر والعرض ، ثم تهم عليه الخوارج فقتلوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ، وأقاموا أبا فديك مكانه سنة ٧٣ وقتل نجدة فى تلك السنة . الطبرى ٧ : ١٩٤ . وانظر أيضاً الفرق بين الفرق ٦٧ والمواقف ٦٢٩ .

(٢) فى الأصل . ٥ وسائر البلدان ٥ ، صوابه من سائر النسخ .

البَعيد ، وكما أنّ أصحاب الخلقان[1] والسَّاكين والنَّحاسين والحاكة فى كلّ بلد من كلّ جنس ، شِرَارُ خلق الله فى المبايعة والمعاملة . فعلمنا بذلك أنّ ذلك خِلقةٌ فى هذه الصناعات . وبِنْيَةٌ فى هذه التّجارات ، حين صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأينا التركىّ فى بلاده ليس يقاتل على دينٍ ولا على تأويل ، ولا على مُلْك ولا على خَراج ، ولا على عصبيّةٍ ولا على غَيرَةٍ دونَ الحُرمة والتَّحرُّم[2] ، ولا على حَمِيّة ولا على عَداوة ، ولا على وطنٍ ومنع دارٍ ولا مال : وإنّما يقاتل على السَّلب والخيارُ فى يده . وليس يخاف الوعيدَ إن هرب ، ولا يرجو الوَعْدَ إن أبلَى عذرا . وكذلك هم فى بلادهم وغاراتهم وحروبهم . وهو الطالب غير المطلوب ؛ ومن كان كذلك فإنّما يأخذ العفْو من قوّته ، ولا يحتاج إلى [مجهوده[3]] . ثم هو مع ذلك لا يقوم له شىء ولا يَطمع فيه أحد ، فما ظنّك بمن هذه صفته أنّ لو اضطرّه إحراجٌ أو غَيْرةٌ أو غَضَب أو تديُّن ، أو عَرَضَ له بعضُ ما يصحبُ القاتلَ المحامىَ من العلل والأسباب .

قال : وقناة الخارجىّ طويلة صمّاء ، وقناة التُّركىّ مِطرَدٌ أجوف[4] . والقنىّ المجوّفة القِصار أشدُّ طعنةً وأخفُّ فى الحمل . والعجم تحمل القنىّ

---

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب . جمع خلق ، وهو البالى . انظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) أى على غيرة على حرمته وحرمه . فى الأصل وبعض أصول ن : «غير ذلك» صوابه فى سائر النسخ (٣) وضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ب .

(٤) المطرد : رمح قصير .

الأموالَ للرَّجالة ، وهى قِنىّ الأبناء[1] ، على أبواب الخنادق والمصابق . ٣٠ ظ
والأبناء فى هذا الباب لا يَحرُون مع الأتراك والخَراسانية : لأنَّ الغالبَ على الأبناء المطاعنةُ على أبواب الخنادق وفى المصابق ، وهؤلاء أصحابُ الخَيل والفرسان وعلى الخيل والفُرسانِ تدور الجُيوش ، لهم الكرّ والفرّ . والفارس هو الذى يَطوِى الجيش طىَّ السِجِلّ ، ويفرّقهم تفريق الشعر . وليس يكون الكمينُ إلّا منهم ولا الطَّليعة ولا السّاقة[2] . وهم أصحابُ الأيّام المذكورة والحروبِ الكبار والفتوح العظام[3] ، ولا تكون المقانب والكتائب إلّا منهم . ومنهم من يحمل المَنودَ والرّايات ، والطُّبول والتخافيف[4] والأجراس . وهم أصحاب الصَّهيل والقَتام[5] ، وزجرِ الخيل ، وقعقعةِ الريح فى الثياب[6]

---

(١) الأبناء ، قوم من الفرس أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لما جاء يستنجده على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن وتديّروها ، وتزوجوا فى العرب فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم اللسان (بنو) . وفى التنبيه والإشراف ٢٢٦ أنهم الذين ساروا مع خرزاد بن نرسى ابن بلاش أخى قباد بن فيروز . وفى ص ٤٢١ أنهم الذين شخصوا مع وهرز إلى اليمن . ويبدو أن جميع الذين اجتذبتهم الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب كان العرب يسمونهم الأبناء .

(٢) كذا فى الأصل وبعض أصول ن . وفى ب : « وليس يكون الكمين ولا الطليعة ولا الساقة إلا الكبار منهم » .

(٣) الكلام بعده إلى موضع التنبيه فى ص ٦٥ لم يرد فى ج ، ف . وسأنبه على ذلك فى موضعه .

(٤) جمع تخفاف ، بكسر التاء وضمها ، وهو ما يوضع على الخيل من حديد وسلاح يقيه الجراح فى الحروب .

(٥) القتام : الغبار . وفى الأصل وبعض أصول ن : « القيام » .

(٦) فى الأصل : « ثياب » مع بياض بعدها ، وأثبت ما فى ن ، س .

والسِّلاح ووقع الحوافر ، والإدراك إذا طَلَعوا ، والغَوْث إذا طَلَبوا . ولم يجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم للفارس سهمين وللراجل من الغنائم سهماً واحداً إلّا لتضاعيف الردّ في القتل والفتوح ، والنُّهبة والمغانم[1] .

ثم قال : ونحن نرى إنّ للأبناء من القتال في السِّكك والشحون[2] والمَضايق ما ليس لغيرهم . ولكن الرِّجالة أبداً أتباعٌ ومأمورون ومنقادون ، وقائد الرِّجالة لا يكون [إلّا[3]] فارساً ، وقائد الفرسان من للمتنع أن يكون راجلاً . ومَن تعوَّدَ الطَّعانَ والضَّرب والرميَ راكباً إن اضطُرَّ إلى الطَّعن والضَّرب والرمي راجلاً كان على ذلك أدفعَ عن نفسه ، وأردَّ عن أصحابه ، من الراجل إذا احتاج أن يستعملَ سلاحَه فارساً . وعلى أنه ما أكثرَ ما ينزلون ويقاتلون . وقد قال الشاعر[4] :

لا يُطيقوا أن ينزلوا ونَزَلْنا وأخو الحرب مَن أطاقَ النُّزولا

وقال الضَّبّيّ[5] :

* وعَلامَ أركبُه إذا لم أنزِلِ[6] *

---

(١) الردء : النجدة . والنهبة ، بالضم فالسكون ، كالنهب . وفي الأصل : « الهيبة » . صوابه في ن ، س .

(٢) وكذا سبق في ص ٣٧ س ٦ .

(٣) تكملة ضرورية .

(٤) هو مهلهل ، كما في الأغاني ٤ : ١٤٩ وشروح سقط الزند ٦٦ والخزانة ٢ : ٣٠٥ . وانظر ما قيل في النزول في هذا الموضع من الخزانة

(٥) هو ربيعة بن مقروم الضبي . الحماسة ص ٦٢ بشرح المرزوقي والخزانة ٢ : ٣٠٥ .

(٦) صدره : فدعوا نزال فكنت أول نازل

وقال آخر :

* فمساقٌ ومنـــــازلُ[1] *

وقال حُمَيد : وليس فى الأرض قومٌ إلّا والتّساند فى الحروب ، والاشتراك فى الرّياسة شارُّهم ، إلّا الأتراك . على أنّ الأتراك لا يتساندون ولا يتشاركون ؛ وذلك أنّ الذى يُكره من المساندة والمشاركة اختلافُ الرأى ، والتنافس فى السِّرّ[2] ، والتحاسد بين الأشكال ، والتواكل فيما بين المشتركين . ٣١ و

والأتراك إذا صافّوا جيشاً إن[3] كان فى القوم موضع عورة فكلّهم قد أبصرها وعَرَفها : وإن لم تكن هناك عورةٌ ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأىُ الانصرافَ ، فكلُّهم قد رأى ذلك الرأىَ وعرفَ الصوابَ فيه . وخواطرهم واحدة ، ودواعيهم مستوية بإقبالهم معاً . وليس هم أصحابَ تأويلاتٍ ولا أصحابَ تفاخر وتناشد ، وإنّما شأنهم إحكام أمرهم : فالاختلاف يقلّ بينهم .

وكانت الفُرس تعيب العرب إذا حرجوا إلى الحرب متساندين ، وكانت تقول : الاشتراك فى الحرب وفى الزّوجة وفى الإمْرة سواء .

قال حُمَيد : فما ظنّك بقومٍ إذا تساندوا لم يبصرهم التّساند ، فكيف يكونون إذا تحاسدوا .

(١) لم أهتد إلى بقيته ولا إلى قائله .

(٢) فى الأصل وبعض أصوله ن : « السير » .

(٣) فى الأصل وبعض أصوله ن : « وإن » ، والواو مقحمة .

فلما انتهى الخبر إلى المأمون[1] قال : ليست بالترك حاجةٌ إلى حكم حاكم بعد حُميد : فإنّ حُميداً قد مارسَ العربيّين ، وحُميد خُراسانيٌّ وحُميد عربيٌّ ، فليس للتُّهمَة عليه طريق .

قالوا : وأتى الخبرُ ذا اليمينين[2] طاهرَ بن الحسين فقال : ما أحسنَ ما قال حُميد . أمَا إنه لا يقصّر ولا يفرّط .

فهذا قول الخليفة المأمون ، وحُكم حُميد . وتصويبُ طاهرٍ .

وحدّثنى رجلٌ من أهل خراسان أو من بنى سَدوس قال : سمعت أبا البطّ يقول : ويلكم ، كيف أصنع بفارسٍ يتلأ فروج دابّته منحدراً من جَبَل ، أو مُصْعِداً فى مقطع عَقير ، ويمكنه على ظهر الفَرس مالا يمكن الرّقاص الأُبُلّى[3] على ظهر الأرض .

قال : وقال سعيد بن عُقْبة بن سَلْم النهائى[4] ، وكان ذا رأيٍ فى الحرب وابنَ ذى رأيٍ فيها[5] : فَرقَ ما بيننا وبين الترك أن الترك لا تهزمُ قوماً قطّ ،

---

(١) كلمة « الخبر » ساقطة من ن ، س

(٢) قالوا : سمى بذلك لأنه ضرب شخصا بالسيف فى وقعته مع على بن شماس . قتله صفين ، وكانت الضربة بيساره وولد طاهر سنة ١٥٩ وتوفى سنة ٢٠٧ وفيات الأعيان وثمار القلوب ٢٠٧

(٣) نسبة إلى الأبلة ، وهى بلدة على شاطئ دجلة ، وفيها يقول الأصمعى : حسان الدنيا ثلاث : غوطة دمشق ، ونهر بلخ ، ونهر الأبلة .

(٤) نسبة إلى بنى نهشل بن مالك بن فهم بن دوس . الاشتقاق ٤٩٨ وجمهرة ابن حزم ٣٨٠ حيث ذكر عقبة بن سلم .

(٥) كان عقبة بن سلم والد سعيد والياً للمنصور على البحرين والبصرة .

ولا صافت جيشاً ولا هبّتْ على عدوّ كانوا عرباً أو عجماً ، فأخرّجوا إليهم أعدادَهم وقُوّهم بمثلهم . وليس عايتهم إلّا أن يتقادوا ليكفّوا عنهم بأسَهم ومَعرّتَهم[1] ، ويصرفوا عنهم كيدهم . فإن هم امتنعوا من الصُّلح واعتزموا على الحرب فليس شأنهم والذى يدور عليه أمرهم إلّا مَنعَ أنفسِهم وتحصينَ عسكرهم ، والاحتراسَ منهم . فإمّا أن ترقى هِمَمُهم وتسمو أنفسُهم إلى الاحتيال عليهم ، والتماس غِرّتهم ، فإنّ هذا شيء لا يخطر على بالِ من يحاربهم . ٣١ ظ

ثم قال : وقد عرفتم حيلَهم فى دخول المدن من جهة حيطانها المصمتة العريضة ، وحيلتَهم فى عبور نهر بَلْخ .

وسعيدٌ هذا هو الذى قال : إذا حاربتم وكنتم ثلاثةً فاجعلوا واحداً مدداً ، وآخرَ كميناً . وله كلامٌ فى الحرب غير هذا كثير .

قال سعيد : وأخبرنى أبى قال : شهدت أبا الخطّاب يزيد بن قَتادة ابن دِعامة الفقيه[2] ، وذكر قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الترك حيث قال : « عَدوٌّ شديدٌ بأسُه ، قليلٌ سلبُه » ، فقال رجلٌ من العالية : سهى عمر[3] أبا زيدٍ الطائىّ عن وصف الأسد : لأنّ ذلك مما يزيد فى رُعب

---

(١) المعرة : الشدة والأذى فى الحرب .

(٢) ليس الفقيه يزيد ، بل أبوه قتادة هو الفقيه . وهو قتادة بن دعامة السدوسى ، وكنيته أبو الخطاب أيضاً . ولد سنة ٦١ وتوفى سنة ١١٧ . تهذيب التهذيب ووفيات الأعيان وتكت الهميان ٢٣٠ . وقد ذكر الجاحظ قتادة فى مواضع كثيرة من الحيوان والبيان

(٣) كذا . والمعروف أن عثمان بن عفان هو الذى سهاه . انظر طبقات ابن سلام ٥١٠ و الأغانى ١١ : ٢٤ والخزانة ٢ : ١٥٥ .

الجبان ، وفى هَول الجَبان . ويُقلّ من رَغَب الشُّجاع[1] ، وقد وُصِف الترك بأشدّ من وصف أبى زُبيد الأسد .

وقال سعيد فى حديثه يومئذ ، وقد قطعتْ شِرذِمةٌ منهم بلادَ أبى خزيمة - يُريدُ حَمزة[2] بن أدركَ الخارجىّ - وما والى خُراسانَ [فى] بعض الأمر ، وحَمزةُ فى مُعظَم الناس ، فقال لأصحابه : أفرِجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعرّضوا لهم ؛ فإنه قد قيل : « تاركوهم ما تاركوكم » .

فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيُه وحديثه : وهو عربىٌّ خُراسانى .

وذكر يزيد بن مَزْيد الوقعة التى قُتل فيها يولبا[3] التركىُّ الوليدَ بن طريف[4] الخارجىّ ، فقال فى بعض ما يصف من شأن التُّرك : ليس لبدن التُّركى على

(١) الرغَب : الرغبة والطمع والحرص .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن . « يزيد بن حمزة » تحريف . وأبو خزيمة كنية حمزة . وفى البيان ٤ : ٢٥ عند الكلام على الكنية بأبى خزيمة : « وهذه الكنية كنية زرارة بن عدس ، وكنية حازم بن خزيمة ، وكنية حمزة بن أدرك » وفى الطبرى ١٠ : ٦٥ وابن الأثير ٦ : ٥٣ : « حمزة بن أرك » وما هنا يطابق البيان والملل والنحل ١ : ١٧٤ . وكان حمزة صاحب فرقة من فرق الصفارية من الخوارج ، خرج فى أيام هارون الرشيد سنة ١٧٩ بسجستان وخراسان ومكران وقهستان ، وهزم الجيوش الكبيرة ، وبقى الناس فى فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، ودارت بينه وبين طاهر بن الحسين وعبد الرحمن البسابوى حروب انتهت بموت حمزة . وانظر الوافى ١٣ : ٦٣٠ والفرق بين الفرق ٧٦ والاعتقادات للرازى ٤٨ .

(٣) أهمل نقط الحرف الأول فى الأصل وبعض أصول ن .

(٤) هذا نص نادر ، فإن الضربة التى أصيب بها الوليد بن طريف لم يعين =

ظهر الدابة ثقل ، ولا لمشيه على الأرض وقع ، وإنه ليرى وهو مدبر ما لا يرى الفارس منّا وهو مقبل . وهو يرى الفارس منا صيدًا وبعدُ نعته فهدا ، وبعدُه ظبيًا[1] وبعدُ نعته كلبا . والله لو زُجِّيَ به فى قعر بئر مكتوفا لما أعجزته الحيلة ؟ ولولا أن أعمار عامتهم تقصر دون الحَتَل — يعنى جَتَل حُلوان — ثم هُمُّوا بنا ، لألفوا لنا شُغلاً طويلا .

وأنشد رجلٌ من أصحابه :

هَبِ الدنيا تُساقُ إليك عفوًا أليس مصيرُ ذلكَ إلى زَوالِ

قال : أما التركى فلأن ينالَ الكفافَ غصبًا أحبُّ إليه من أن ينال الملك عفواً . ولم يَتهنَّ تركىٌّ بطعام إلا أن يكون صيداً أو مغنما ، ولا يَعَرُّ[2] على ظهر دابته طالباً كان أو مطلوبا . ٣٢ و

وقال ثُمامة بن أشرس ، وكان مثلَ محمدِ بن الجهم فى كثرة ذِكره للترك . قال ثمامة : التركىُّ لا يخاف إلا نَحْوفا ولا يطمع فى غير مطمع ، ولا يكفُّه عن الطلب إلا اليأس صِرفاً ، ولا يدع القليلَ حتى يصيب أكثرَ منه ، وإنْ قدر أن يجمعهما لم يفرِّط فى واحدٍ منهما . والباب الذى لا يُحسنه لا يُحسن منه شيئاً ،

= ضاريها المؤرخون . انظر ابن الأثير ٦ : ٥١ فى حوادث ١٧٩ وكذا الأغانى ١١ : ٩ . وقد ذكر ابن الأثير وأبو الفرج والطبرى ١٠ : ٦٥ أن يزيد بن مزيد هو الذى احتز رأسه بعد ما أصيب. وفى ذلك تقول أخت الوليد ليلى بنت طريف أبو الفارعة :

جاءت بك أزداه يزيد بن مزيد فيارب خيل قصها ومعوفِ

وانظر الأمالى ٢ : ٢٧٤ واللآلى ٩١٣ ووفيات الأعيان ٢ : ١٧٩

(١) أى بعد الفارس منا ظبيا حذيراً بالقنص . وفى الأصل وبعض أصول ن : « وبعده »

(٢) أى لا يغتاب فى الأصل و ن : « ولا يعر » . وفى س : « ولا يغر » .

والباب الذى يحتمه قد أحكمه مأسره وأمرّه[1] وخفيّه عنده كظاهره[2] ، ولا يتشاغل بشىء ليس فيه شىء ، ولا على نفسه من شىء[3] . فلولا أن نجمّ نفسه بالنوم لما نام ، على أنّ نومه مشوبٌ باليقظة ، ويقظته سليمة من الوَشَلة . ولو كان فى شِقّهم أبياه ، وفى أرضهم حُكماء ، وكانت هذه الخواطر قد مرّتْ على قلوبهم ، وقرعت أسماعهم[4] ، لأمسكَ أدب البصريّين ، وحِكمة اليونانيّين ، وصَنعةَ أهلِ الصّين .

وقال ثمامة : عَرضَ لنا فى طريق خُراسانَ تركىٌّ ومعنا قائد يصولُ بنفسه ورجاله ، وبيننا وبين التركىّ وادٍ ، فسأله أن يبارزه فارسٌ من القوم ، وأخرج له رحلًا لم أر قطّ أكملَ منه ، ولا أحسنَ تمامًا وقوامًا منه ، فاحتال حتّى عبر إليهم الفارس ، فتحاولا ساعة ، ولا ظنّ إلّا أنّ صاحبنا يَفِى بأضعافه ، وهو فى ذلك يتباعد عنّا . فبينا هما فى ذلك إذْ ولّى عنه التركى كالهارب منه ، وفَعَل ذلك فى موضع ظنّنا أنّ صاحبنا قد ظهر عليه ، وأتبعه الفارس لا نشكّ إلّا أنّه سيأتينا برأسه ، أو يأتينا به مجنوبًا إلى فرسه ، [فلم نشعر[5]] إلّا وصاحبنا قد أعانَ عن فرسه وغاب عنه ، فنزل التركىّ إليه فأخذ سَلَبه وقتله ، ثم عارض فرسَه فجنبه إليه معه .

---

(١) أمره إمرارا : أحكمه ووثقه توثيقاً .

(٢) فى الأصل و ن : « وأمره عنده خفيه كظاهره » . والوجه ما أثبت من س .

(٣) صحفت فى ن ، س بزيادة « يخاف » بعد كلمة « لا » .

(٤) هذا هو الصواب . وعدلت فى ن ، س إلى : « وفرغت لها أسماعهم » ، وليس ما يدعو إلى ذلك . وما أثبت من الأصل أوفق وأعلى

(٥) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ن ، س .

قال ثمامة : ثم رأيتُ بعد ذلك التركيَّ قد جيء به أسيراً إلى دار الفضل ابن سهل ، فقلت له: كيف صنعتَ يومئذ ، وكيف طاولته ثمَّ علاك ثم وليت عنه هاربا ثم قتلته ؟ قال : أمَا إنى لو شئت أن أقتله حين عَبَرَ؛ وقد كانَ مقتله ٣٢ ظ بارزاً لى ، ولـكنّى احتلتُ عليه حتّى نحّيته عن أصحابه لأجوّزه ، فلا يُحَالَ بينى وبين فرسه وسَلَبه .

قال ثمامة : وإذا هو يُدير الفارسَ من سائر الناس ويُريمُه كيف شاء وأحبّ[1] .

قال ثمامة : وقد غَبرتُ فى أيديهم أسيراً فما رأيتُ كإكرامهم وتُحفهم وألطافهم .

فهذا ثمامةُ بن أشرس ، وهو عربىٌّ لا يُتَّهم فى الإخبار عنهم .

وأنا أخبرك أنّى قد رأيتُ منهم شيئاً عجيباً وأمراً غريبا : رأيت فى بعض غَزَوات المأمون يحاطَىْ خيلٍ على جَنْبتى الطّريق بقُرب المنزل ، مائة فارس من الأتراك فى الجانب الأيمن ، ومائةٌ من سائر الناس فى الجانب الأيسر ، وإذا هم قد اصطفّوا ينتظرون مجىء المأمون ، وقد انتصفَ النّهارُ واشتدّ الحر . فورد عليهم وَجْعُ الأتراك[2] جلوسٌ على ظهور خيولهم إلّا ثلاثة أو أربعة ، وجميع تلك الأحلاطِ من الجند قد رَمَوْا بنفوسهم إلى الأرض إلّا ثلاثة أو أربعة . فقلت

---

(١) أراعه : أراده وطلبه . وعلى الأمر : أداره عليه . وأنشدوا :

يديرونى عن سالم وأديرهم وحاجة بين العين والأنف سالم

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « وجميع »

لصاحبي لي : انظر أيَّ شيء اتَّفق لنا . أشهد أنَّ المعتصمَ كان أعرفَ بهم حين جَمَعهم واصطفاهم .

وأردتُ مرَّةً القاطولَ — وهي البارِكة — وأنا خارجٌ من سِداد ، وأرى فوارسَ من أهل خراسان والأبناء وغيرهم من أصناف الجند ، قد عارَ لهم فرس[1] ، وهم على خيل عتاق يُربعون به فلا يقدرون على أخذه ، ومرَّ تركيٌّ ولم يكنْ من ذوي هيئاتهم وذوي القدرِ منهم ، وهو على برذونٍ له حبيس ، وهم على الخيول المطهَّمة ، فاعترضَ الفرسَ اعتراضًا ، وقتله قتلًا وَحِيًّا[2] ؛ وأتاه مَن زجَره بشيء ، فوقف أولئك الجندُ وصارُوا نَظّارة ، فقال بعضهم ممن كان يُزري على ذلك التركيِّ : هذا وأبيك التكلُّف والتعرُّض : أنَّ فرسًا قد أعجزهم وهم أُسْد البلاد ، وجاء هذا مع قِصَر قامته وضَعْف دابَّته ، فطمِعَ أن يأخذه . فما انقضَى كلامُه حتى أقبلَ به ثمَّ سلَّمه إليهم ومعى لطيفته ، لم ينتظر ثناءهم ولا دعاءهم . ولا أراهم أنَّه قد صنع شيئًا ، أو أنَّى إليهم معروفًا .

والأتراك قومٌ لا يعرفون المَنّ ولا الخلابةَ ، ولا النِّفاق ولا السَّمابة ، ولا التصنُّع ولا النَّميمة ولا الرِّياء ، ولا التَّدَخ على الأولياء[3] ، ولا البغْيَ على الحلفاء ، ولا يعرفون البِدَع ، ولم تُفسدهم الأهواء ، ولا يستحلُّون الأموال على التأوُّل ، وإنما كان عَيبَهم ، والذي يُوحِش منهم ، الحنينُ إلى الأوطان ، وحبُّ التقلُّب في البلدان ، والصَّبابة بالمارات ، والشَّغَف بالنَّهب ، وشدَّة ٣٣ و

(١) عار يعير : انفلت وذهب هاهنا وهاهنا وحاد عن الطريق .

(٢) الوحى : السريع .

(٣) التدخ : الكبر والتطاول والفخر

الإلف للعادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سُرور الظفر وتتابُعِه ، وحَلاوة التَّنَعُّم وكثرته ، و ملاعبهم في تلك الصَّحارى ، وتردُّدهم في تلك الثروج ، وألّا يذهب بطول الفَراغ فضلُ تَحْذيب باطلا ، ويصير حَدُّهم على طول الأيام كليلا .

ومَن حَدق شيئاً لم يَصبر عنه ، ومن كَرِه أمرًا فرّ منه .

وإنما خُصُّوا بالحُسْن من بين جميع العجم لأنّ في تركيبهم وأخلاطِ طبائعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم ، ومشاكلة مياههم ومناسبة إخوانهم ، ما ليس مع أحدٍ سواهم . ألا ترى أنّك ترى البصريَّ فلا تدرى أبصريٌّ هو أم كوفيّ ، وترى المكّيَّ فلا تدرى أمكّيّ هو أم مدنيّ . وترى الجَبَليّ فلا تدرى أجَبَليٌّ هو أم خراسانيّ ، وترى الجَزَريَّ فلا تدرى أجَزَريٌّ هو أم شاميّ . وأنت لا تَغلَط في التركيّ ، ولا تحتاج فيه إلى قيافةٍ ولا إلى فِراسة ، ولا إلى مسألة . وسائرهم كرجالهم ، ودوابُّهم تركيّةٌ مثلهم .

وهكذا طَبَع اللهُ تلك البلدة ، وقسم لتلك التربة . وجميعُ دُور الدنيا ونشوئها إلى منتهى قُواها ومدَّة أجلها ، جاريةٌ على علّتها ، وعلى مقدار أسبابها ، وعلى قدر ما خصّها الله تعالى به وأبانَها ، وجَعَل فيها . فإذا صاروا إلى دار الجزاء ، فهي كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً[1] ﴾ .

وكذلك ترى أبناء العرب والأعرابِ الذين نزلوا خراسانَ . لا تفصيل بين من نزل أبوه مرعانة وبين أهل قَرعانة ، ولا ترى بينهم فرقًا في السِّبال الضَّهب

(١) الآية ٣٥ من سورة الواقعة

والجلود القَشِرة[1] ، والأقذاء العظيمة ، والأكسية الفَرغانية . وكذلك جميع تلك الأرباع ، لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النابتة .

٣٣ ظ ومحبّة الوطن شيء شامل لجميع الناس ، وغالبٌ على جميع الجِبِرة[2] . ولكن ذلك في التُّرك أغلَب ، وفيها أرسَخ ؛ لما معها من خاصّة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشَّبَه ، وتكافي التركيب . ألا ترى أنّ العبديّ يقول[3] : « عَمَر اللهُ البُلدان بحبّ الأوطان » ، وأنّ ابنَ الزُّبير قال : « ليس الناس شيء من أقسامهم أقنَعَ منهم بأوطانهم[4] »، وأنّ عُمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال : « لولا تفرّق أهواء العباد لما عَمَر اللهُ البلاد » ، وأنّ جُمعة الإباديّة قالت : « لولا ما أوصى الله به العبادَ من قَفْر البلاد ، لما وَسِعهم وادٍ ولا كفاهم زاد » .

وذكر قتيبة بن مسلم التُّرك فقال : « هم والله أحنُّ من الإبل المقلَّة إلى أوطانها » ؛ لأنّ البعير يحنُّ إلى وطنه وعَطَنِه ، وهو نُهانَ ، من ظهر البَصرة ، فهو يخبط[5] كلَّ شيء ويَستبطن كلَّ وادٍ ، حتّى يأتيَ مَكانَه : على أنّه طريق لم يسلكه إلّا مرة واحدة ، فلا يزال بالشَّمّ والاسترواح وحسن الاستدلال ، وبالطبيعة المخصوص بها حتّى يأتي مَبْرَكه ، على بُعد ما بين عُمانَ والبَصرة

---

(١) من القشر ، بالتحريك ، وهو شدة الحرة .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « الحيرة » . وفي ف : « الجبرة » . والجبرة بمعنى الناحية

(٣) يعني في الحيوان ٣ : ٢٢٧ : « وقد قالوا »

(٤) الأقسام : جمع قسم ، بالكسر ، وهو الحظ والنصيب . وانظر في الحيوان ٣ : ٢٢٧

(٥) في الأصل وبعض أصول ن . « نهى تحت » تحريف .

فلذلك ضربت به قبة المثل[١] .

والشُّحُّ على الوطن [والحنين إليه[٢]] ، والعَبَابة به ، مذكوره في القرآن ، مخطوطة في [الصُّحف بين[٣]] جميع الناس غير أنّ التركَ للعلل التي ذكرناها أشدُّ حنيناً وأكثر نُزوعاً[٣] .

وباب آخر ، مما كان يدعوهم إلى الرجوع قبل العزم الثابت[٤] ، والعادة المنقوصة[٥] : وذلك أنّ الترك قومٌ يشتدُّ عليهم الحَضَر [والخُتوم[٦]] ، وطول اللُّبث والسُّكْن ، وقلّة التصرّف والتحرّك ، وأصلُ بِنيتهم إنّما وُضِع على الحركة ، وليس للسكون فيها نصيب ، وفي قوى أنفسهم فضلٌ على قوى أبدانهم ، وهم أصحاب توقُّد وحرارة ، واشتغال[٧] وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريعٌ لحظهم ، وكانوا يَرَون الكِفايةَ مَعجَزة ، وطُولَ المُقام ملالة ، والراحةَ عُقلة[٨] ، والقناعة من قِصَر الهِمّة ؛ وأنّ تَرْكَ العَزْو يُورث الذِّلّة .

---

(١) إلى هنا ينتهي إغفال الاختيار في ج ، ف الذي بنيت على بدايته في ص ٥٣ .

(٢) التكملة من ب .

(٣) هذا ما في ف . وفي الأصل ، ن : «وأشد نزاعا» ج : «وأكثر نزعا» .

(٤) ج : « عزم الثاني» ف : « ثم العزم » . وفي الأصل : « العزم الثاني» ، والوجه ما أثبت من سائر النسخ

(٥) في الأصل ، س : « والمادة المنقوصة » . صوابه في ج . ف وفي ن : « والمادة المنقوصة » .

(٦) التكملة من ن . والكلمة ساقطة من ف . وبدلها في ح . « الختوم » . ختم : لزم مكانه فلم يبرحه

(٧) في الأصل و ف : « واستعمال » . وأثبت ما في ب .

(٨) أي تحمل صاحبها وتحبسه عن الانطلاق .

٣٤ و وقد قالت العرب فى مثل ذلك : قال عبد الله بن وَهْبٍ الراسبىّ : « حب الهوَيا يُكسِب النَّصَب » . والعرب تقول : « من غلا دماغه فى الصَّيف غَلَتْ قِدرُه فى الشِّتاء » . وقال أكثم بن صَيفىّ : « ما أحبُّ أنّى مكفىٌّ كلَّ أمرِ الدنيا » . قيل : ولِمَ ؟ قال : « أخاف المحر » .

فهذه كانت علَّةَ التَّرك فى حبِّ الرُّجوع والحنين إلى الوطن .

ومن أعظم ما كان يَدْعُوهم إلى الشُّرُودِ ويبعثهم على الرجوع ، ويُكرِّه عندهم المقام ، ما كانوا فيه من جَهل قوّادهم بأقدارهم ، وقلّة معرفتهم بأحطارهم ، وإغفالهم موضع الرَّدّ عليهم والانتفاع بهم ، حتّى جعلوهم أسوةَ أجنادهم ، ولم يقنعوا أن يكونوا فى الحاشية والحَشْوة ، وفى غِمار العامّة ومن غُرَّض العساكر ، وأنفوا من ذلك لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ، ورأوا أنّ الصَّمْتَ لا يليق بهم ؛ وأنّ الخمول لا يجوز عليهم ، وأنهم فى المقام على من لا يعرف حقَّهم ألوَم ممّن منعَهم حقَّهم . فلمّا صادفوا مَلِكاً حكيماً ، وبأقدار النّاس عليما ، لا يميل إلى [سوء[2]] عادةٍ ولا يَجنَح إلى هوى ، ولا يتعصّب لدِينٍ على بلد : يدور مع التدبير حيثما دار ، ويقيم مع الحقّ حيثما أقام ، أقاموا إقامةَ من قد فهم الحظّ[3] ، ودانَ بالحقّ ونَفَذ العادة ، وآثر

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن : « الدنيا » ، صوابه فى ب .

(٢) التكملة من ب .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « الحق » ، وأثبت ما فى ب . لكن فى ف : « منح » موضع « فهم » .

الحقيقة ، ورحل نفسه لتعليمة وعلمه[1] ، وآثر الإمامة على ملك الخيرية[2] ، واختار الصواب على الإلف .

ثم اعلم[3] بعد هذا كله أن كل أمة وقرن ، وكل حيل وبنى أب وجدتهم قد برعوا فى الصناعات ، وفضلوا الناس فى البيان ، أو فاقوهم فى الآداب ، وفى تأسيس الملك ، وفى البصر بالحرب : فإنك لا تجدهم فى الغاية وفى أقصى النهاية ، إلا أن يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالأسباب ، [وقصرهم[4]] عليه بالعلل التى تقابل تلك الأمور ، وتصلح لتلك المعانى : لأن من كان متقسم الهوى ، مشترك الرأى ، ومتشعب النفس ، غير موفر على ذلك الشىء ولا مهيأ له ، لم يحذق من تلك الأشياء [شيئاً[5]] بأسره ، ولم يبلغ فيه غايته ، كأهل الصين فى الصناعات ، واليونانيين فى الحكم والآداب ، والعرب فيما نحن فيه ذاكروه فى موضعه ، وآل ساسان فى الملك ، والأتراك فى الحروب . ألا ترى أن اليونانيين الذين نظروا فى العلل لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً بأكفهم ، ولا أصحاب زرع ولا فلاحة وبناء وغرس ، ولا أصحاب جمع ومنع ، وحرص وكد ، وكانت الملوك تفرعهم ، وتجرى عليهم كفايتهم ، ٣٤ ظ

---

(١) يقال رحل نفسه لكذا ، إذا صير على أداه . وفى الأصل وبعض أصول ن : « غطنه » تحريف .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « وآثر ملك الإقامة على ملك الخرية » ، صوابه فى ب .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن . « وأعظم » .

(٤) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباته من ب .

فنظروا حين نظروا بنفس مختلفة ، وقوّة واقرة ، وأذهان قارعة ، حتى استخرجوا الآلاتِ والأدوات ، والملاهيَ التي تكون تمّاماً للنفس ، وراحة بعد الكدّ ، وسروراً يداوي قَرحَ الهموم ، فصنعوا[1] من المرافق ، وصاغوا من المنافع كالقَرصطونات[2] ، والقَسّابات ، والأُسطُرلابات[3] ، وآلة الساعات ، وكالكونيا[4] وكالشيزان[5] والبِركار[6] وكأصناف المزاميز والمعازف ، وكالطبِّ والحسابِ والهندسة والفُنون ، وآلات الحرب كالمجانيق .

(١) في الأصل وبعض أصول ن : « صنعوا » .

(٢) جاء في النزهة المبهجة لداود الأنطاكي بهامش تذكرة داود ١ : ١٥ « علم مركز الأثقال مثل القرسطيون ، يعني القبان » . وجاء في كتاب التربيع والتدوير ص ١٣٨ سابعي : « وخبرني عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص ، ووزن جميعه ثلاثون رطلا زاد ذلك أو نقص » وانظر الحيوان ١ : ٨١ ، فيبدو أنه ضرب من القبان .

(٣) الأسطرلاب أو الأصطرلاب : مقياس للنجوم ، وهو باليونانية أصطرلابون . وأصطر هو النجم ، ولابون هو المرآة ، وقد يهذي بعض المولعين بالاشتقاقات في هذا المعنى بما لا معنى له ، وهو أنهم يزعمون أن لاب اسم رجل وأصطر جمع مطر وهذا اسم يوناني ، اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف . مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ١٣٤ والحيوان ١ : ٨١ / ٢ : ٢٤٢ وقد وقع صاحب القاموس في هذا الوهم الذي نبه عليه الخوارزمي في مادة (لوب)

(٤) في الأصل : « وكالكرنا » بهذا الإهمال ، وأثبت ما في ج ، ف وفي مفاتيح العلوم : « الكونيا » بالواو ، وقال : « للنجارين يقدرون بها الزاوية القائمة »

(٥) ج ، ف : « والكسيران » ن ، س : « والكشتوان » .

(٦) البركار : آلة هندسية مركبة من ساقين متصلتين تثبت إحداهما وتدور حولها الأخرى . ويرسم بها الدوائر والأقواس . وتسمى بالعامية « البرجل » . وهي في الفارسية « پركار »

والعرّادات[١] ، والرّتيلات[٢] ، والدّبّابات ، وآلة التّقاط[٣] ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

وكانوا أصحابَ حكمة ولم يكونوا فَعَلة : يصوّرون الآلة ، ويحرطون الأداة ، ويصوغون المثل ولا يُحسنون العملَ بها[٤] ، ويشيرون إليها ولا يمسّونها ، ويرغّبون فى العلم ويرغّبون عن العمل .

فأمّا سُكّان الصين فهم أصحاب السّبك والصياغة ، والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخرْط والنّحت والتصاوير ، والنّسخ والخطّ ، ورفق الكفّ فى كلّ شىء يتولّونه ويباشرونه ، وإن اختلف جوهرُه ، وتباينت صنعته ، وتفاوتت قيمته .

واليونانيون يعرفون الفلك ، لأنّ أولئك حكماء وهؤلاء فَعَلة[٥] . وكذلك العرب ، لم يكونوا تجّارا ولا صنّاعا ، ولا أطبّاء ولا حُسّابَ ، ولا أصحابَ فلاحة فيكونوا مَهَنة ، ولا أصحاب زرع ، لخوفهم من ضَعَار

---

(١) العرادة : منجنيق صغير والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة فى القتال . وانظر حواشى البيان والتبين ٣ : ١٧ .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : «والترسلات» بالإهمال . وفى بعض أصول ن : « الزقيلات » . وباقى النسخ : « الزتيلات » . وفى البيان ٣ : ١٧ . « الزتيلة »

(٣) ج ، ف : « التقاطين » .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « المثال ولا يحسنون العمل به » ، وعدلت العبارة لتتفق مع سائرها .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « حكما وهم فعلة » وأثبت الصواب من ب .

الجزية[1] . ولم يكونوا أصحابَ جمعٍ وكسب ، ولا أصحابَ احتكارٍ لما فى أيديهم وطلب ماعند غيرهم ، ولا طلبوا المعاشَ من ألسنة الموازين ورءوس المكاييل ، ولا عرفوا الدَّوابيق والقرابط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشمل عن المعرفة[2] ، ولم يستغنوا الغنى الذى يورث البَلَدة[3] ، والثروة التى تحدث البِرَّة ، ولم يغتمروا دُلًا قطُّ فيميتَ قلوبَهم ويصغِّر عندهم أنفسَهم . وكانوا سكانَ
٣٥ و فياف وتربيةَ العَرَاء ، لا يعرفون العَمَقَ ولا الفَلَق[4] ، ولا النَّخَار ولا المِلَظ ولا العَفَن ، ولا النَّخَم[5] . أذهان حِداد ، ونفوسٌ منكرة ، لحين خَلَوا حَدَهم ووجَهوا قواهم لقول الشِّعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الأثَر وحفظ النَّسَب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرُّف الأنواء ، والتبصر بالخيل والسِّلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكلِّ مسموع والاعتبار بكلِّ محسوس ، وإحكام شأن المثالب والمناقب ، بَلَغوا فى ذلك الغاية ، وحازوا كلَّ أمنيَّة . وببعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ، وهممهم[6] أرفعَ من جميع الأمم وأحر ، ولأيامهم أحفظَ وأذكر .

وكذلك التُّرك أصحاب عَمَد وسُكَّان فياف وأرباب مواشٍ . وهم أعراب

---

(١) الصَّغار : الذل .

(٢) التكملة من ب ، ولم يبيض لها فى الأصل

(٣) البلدة ، بضم الباء وفتحها : ضد النفاد والذكاء والفطنة فى الأمور .

(٤) العمق : الندى والرطوبة والوخامة والفلق : الندى مع سكون الريح . فى الأصل وبعض أصول ن : « العمق والسق » ، تحريف .

(٥) النخم : الوخم ، وهو الوباء .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « وفهمهم » ، وأثبت ما فى ب .

التجم كما أنّ هديلا أكراد العرب . فحين لم تشملهم الصّناعات والتّجارات ، والطّبّ والفلاحة والهندسة : ولا غرسَ ولا بُنيانَ ، ولا شقّ أنهار ، ولا حياية علّات ، ولم يكن همّهم غير الغزو والعمارة والصّيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم وتدويخ البلدان ، وكانت همتهم إلى ذلك مصروفة وكانت لهذه[1] المعانى والأسباب مسخّرة ومقصورة ، عليها ، وموصولة بها ، [أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتوا على آخره[2] ، و إصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ، إ ولذّتهم[3]]وفخرهم ، وحديثهم وسمرهم .

فلمّا كانوا كذلك صاروا فى الحرب كاليونانيين فى الحكمة ، وأهل الصّين فى الصناعات ، والأعراب فيما عددنا ونزلنا ، وكآل ساسانَ فى الملك والرياسة .

ومما يستدلّ به على أنّهم قد استفرغوا هذا البابَ واستغرقوه ، وبلغوا أقصى غايته وتعرّفوه ، أنّ السّيف إلى أن يتقلّده متقلّد ، أو يضرب به ضارب ، قد مرّ على أيدٍ كثيرة ، وعلى طبقات من الصّنّاع ، كلُّ واحد منهم لا يعمل عملَ صاحبه ، ولا يحسنه ولا يدّعيه ولا يتكلّفه ، لأنّ الذى يدبّب حديد السّيف ويميّنه ، ويصفّيه ويهذّبه ، غير الذى يحدّه ويمطله[4] : والذى يحدّه ويمطله[4]

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن : « وكانوا بهذه »

(٢) التكملة من ب

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « غير الذى يحده ويمده » . وأثبت ما فى ب .

(٤) المطل : المد . وفى الأصل وبعض أصول ن « ويخطه » تحريف .

٣٥ ظ غير الذى يطبعه ويسوّى متنَه ، وبين خَشيبَته[1] ؛ والذى يطبعه ويسوّى متنه غير الذى يَسقيه ويُرهِفه ، والذى يُرهِفه غير الذى يُركّب قَبيعتَه ويستوثق من سِيلانه[2] ، والذى يعمل مسامير السِّلان و [شارِبَى[3]] القبيعة وفصل السيف غير الذى ينحت خَشَب غِمده ، والذى ينحت خَشَب غمده غير الذى يدبغ جِلْده ، والذى يدبغ جلده غير الذى يحلّيه ، والذى يُحلّيه ويركّب نعلَه غير الذى يَحرز حمائله . وكذلك السَّرْج[4] ، وحَالات السَّهم والجَلَبة والرُّمح وجميع السلاح ، مما هو جَارِحٌ أو جُنّة[5] .

والتركيبُ يعمل هذا كلّه لنفسه من ابتدائه إلى غايته ، فلا يستعين برفيق ، ولا يَفزع فيه إلى صديق[6] ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يَشغل قلبه بمطالبه وتسويمه ، وأكاذيب مواعيده ، وبِرَم كِرائه .

وحين بلغ أوسُ بن حجر صفةَ القانص ، وبلغ له الغايةَ فى جمعه لأبواب الكفاية بنفسه ، قال :

---

(١) فى اللسان : « يقال سيف مشقوق الخشية ، يقول عرض حين طبع » . فى الأصل وبعض أصول ن : « جنبته » ، ج : « حشاته » ، وأثبت ما فى ن ، س ، ف .

(٢) السِّلان ، بالكسر : سنخ قائم السيف ، أى أصل مقبضه .

(٣) التكملة من ن ، س . وبياض فى ج « وشادى » وفى ف : « وشادى » . والقبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أنفان طويلان فى أصل مقبض السيف .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « السراج »

(٥) الجُنة ، بالضم : ما يتقى به من ترس ونحوه . فى الأصل وبعض أصول ن : « خارج أو منه » ، تحريف .

(٦) ب : « ولا يفزع إلى رأى صدق » .

قَصِيُّ مَبِيتِ اللَّيلِ للضيد مطعَمٍ لأسْهِمِهِ غارٍ وبارٍ وراصفُ[1]

وليس أنه ليس فى الأرض تركىٌّ إلا وهو كما وصفنا ، كما أنَّه ليس كل يونانىٍّ حكيمًا ولا كل صينىٍّ غايةً فى الحذق ، ولا كلُّ أعرابىٍّ شاعراً فائقًا ، ولكنَّ هذه الأمور فى هؤلاء أعمُّ وأتمُّ ، وهى فيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا فى السبب الذى تكاملت به التَّعدة[2] والفروسيَّة فى التَّرك دون جميع الأمم ، وفى العلل التى من أجلها انتظموا جميعَ معانى الحرب ، وهى معانٍ تشتمل على مذاهبَ عربية ، وخصال عجيبة .

فمنها : ما يقضى لأهله بالكرم وتمهيد الهمَّة وطلب الغاية . ومنها : ما يدلُّ على الأدب الشديد والرأى الأصيل ، والفِطنة الثَّاقبة والبصيرة النافذة . [ألا ترى أنَّه ليس بدٌّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحزم والعزم ، والصبر والكتمان ، ومن الثقافة[3]] ، وقلَّة الغفلة وكثرة التجربة . ولا بدَّ من البصر بالخيل والسلاح ، [والخبرة[4]] بالرِّجال وبالبلاد ، والعلم بالمكان والزَّمان والمكايد ، وبما فيه صلاحُ هذه الأمور كلِّها .

---

(١) ديوان أوس ص ٧١ . قصى مبيت الليل ، يقول : لا يبيت مع أهله ، إنما يبيت مع الوحش . ويقال فلان مطعم للصيد ومطعم الصيد ، إذا كان مرزوقا . مسه . غار . هو من غراه يغروه ، إذا طلاه بالغراء . والبرى معروف . والراصف من الرصفة . وهى ما يشد على صدر السهم . فى الأصل : «وراصف» صوابه فى ن ، س . والبيت والكلام المتعلق به قبله ساقط من ج . ف .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : وقد قلنا فى السنة التى هذا تكاملت الجدة ، صوابه فى ب .

(٣) التكملة من ب (٤) التكملة من ب

٣٦ و والملك يحتاج إلى أنواع شداد وأسباب متين ، ومن أتمها سببا وأعمقها سببا ما ثبّته فى نصابه ، وأقرّه وسكّنه فى قراره ، وزاد فى تمكّنه وبهائه ، وقطع أسباب المطمعة فيه ، ومنع أيدى البغاة من الإشارة إليه فضلا عن البسط عليه[1] .

قال : ثم إنّ الترك عطفت على العرب بالحاجة والقرابة ، وقالوا : فلتم إن تكن القرابة مما يستحقّ بالكفاية فنحن أقدمُ فى الطّاعة والوُدّ والمناصحة ، وإن نكن نستحقّ بالقرابة فنحن أقربُ قرابة .

قالوا : والعرب بعد هذا صِنفان : عدنان وقحطان . فأمّا القحطانيّ فنسبتنا إلى الخلفاء أقربُ من نسبتهم ، ونحن أمسّ بهم رَحما : لأن الخليفة من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، دون قحطانَ وعابِر . وولدُ إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ ، وأمّه هاجَر ، وهى قبطيّة . وإسحاقُ وأمّه سارّة وهى سُريانيّة . والستّة الباقون أمّهم قَطورا بنت مقطون[2] عربيّة ، من العرب العاربة .

وفى قول القحطانية : إنّ أمّنا أشرفُ فى الحسب إذْ كانت عربية . وأربعةٌ من الستة هم الذين وقعوا بخراسانَ ، فأولدوا تُركَ خراسان . فهذا قولنا للقحطانيّ .

---

(١) الكلام بعده إلى « وكلها حواد » فى ص ٨٧ ليس فى اختيار ج ، ف .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « وأمهم قطورة » . والوجه ما أثبت من جمهرة أنساب العرب ٥ ، ٥١٠ وسيرة ابن هشام ٧١ . وفى سفر التكوين ٢٥ : ١ « قطورة » . وقد ذكرت أسماء الستة فى سفر التكوين .

وأما قولنا للعدنانيّ ، فإبراهيم أبونا ، وإسماعيل عمّنا ، وقرابتنا من إسحاعيل كقرابتهم .

قال الهيثم بن عدىّ : قيل لمبارك التُّركيّ ، وعنده حمّادٌ التركى : إنّكم من مَذحِج . قال : ومَذحج هذا من هو ذاك ؟ وما نعرف إلّا إبراهيمَ خليلَ الله وأميرَ المؤمنين .

قال الهيثم : وقد كان سقَط إلى بلاد الترك رجلٌ من مَذحج فأنسَلَ نسلًا كثيراً ، ولذلك قال شاعر الشُّعوبية للعرب فى قصيدةٍ طويلة :

زعمتم بأنّ الترك أبناء مذحجٍ ... وبينكم قُربَى وبين البرابرِ
وذلكم نسلُ ابن ضبّة باسلٍ ... وصُوفانَ أنسالٌ كثير الجرائر[1]

وقال آخر :

متى كانت الأتراكُ أبناء مَذحجٍ ... ألا إنّ فى الدنيا عجيبًا ابن تَجِبْ

وقد سمعتم ما جاء فى سدّ بنى قَطورا[2] وشأنِ حميرلم بنحل السَّواد[3] ، وإنّما كان الحديثُ على وجه التّهويل والتخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا للإسلام مادّة [و] حمداً كثيرا ، وللعلماء وِقايةً وموئلًا وجُنّةً حصينة ، وشعاراً دون الدّثار . ٣٦ ظ

---

(١) فى جمهرة ابن حزم ٢٠٣ : « وباسل بن ضبة يقال إن الديلم من ولده » .

(٢) فى الأصل : « قنطور » . وانظر ما سبق .

(٣) ن ، س : « تبحر السواد » والسواد سواد العراق ، وهى قرى الكوفة والبصرة . وأصل السواد جماعة النخل والشجر

وفى المأثور من الخبر : « تاركوا الترك ماتاركوكم » . وهذه وصية لجميع العرب ؛ فإنّ الرأى متاركتنا ومسالمتنا . وما ظنّكم بقوم لم يتعرض لهم ذو القرنين . وبقوله « اتركوهم » سُمُّوا الترك . هذا بعد أن غلب على جميع الأرض غلبةً وقسراً ، وعَنوةً وقهراً .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « هذا عدوٌّ شديدٌ كَلْبُه ، قليل سَلْبُه » . فنهى كما ترى عن التعرُّض لهم ، بأحسنِ كناية .

والعربُ إذا ضَربت المثلَ فى العداوة الشّديدة قالوا : ماهم إلاّ الترك والذئب.

قال عَبّاس بن عَقِيل بن عُلّفة :

تبدّلت منه بعد ما شاب مَفرِقى عداوةَ تركىٍّ وبعضَ أبى حِنّالِ

وأبو حِنّالٍ هو الضَّبُّ . والعرب تقول : « هو أعقُّ من ضَبّ » ؛ لأنّه يأكل أولادَه .

ولم يُرعِب قلوبَ أجناد العرب مثلَ الترك . وقال خلفٌ الأحمر :

كأنّى حين أرهنهم بَنِيّى دفعتُهمُ إلى ضَبِّ الشِّمالِ[1]

قال : وإيّاهم عنَى أوسُ بن حجر :

تكنّفها ماهم لما رأيتهم شبهَ الشِّمالِ بأيديهم بيازِرُ[2]

---

(١) يجوز فى ياء المتكلم الدغم فيها ياء أن تكون مفتوحة كما يجوز كسرها . وبالأخيرة قرأ حمزة : « وما أنتم بمصرخى » بالكسر الأشمونى ٢ : ٢٨٢

(٢) فى الأصل وفى بعض أصول ن : « تكسهم اماهم » . وكتب فى حاشيتها : « ظ حسبتهم أنهم لما رأيتهم » أى الظاهر والصواب ما أثبت من ن ، س وديوان أوس ٣٣ . والبيازر : جمع بيزرة . وهى العصا العظيمة وفى الأصول : «مازن» صوابه من الديوان .

وحدثني إبراهيم بن السندي مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ، شديدَ الحبِّ لأبناء الدَّعوة ، وكان يخوطُ مواليه ويحفظ أيامَهم ، ويدعو الناسَ إلى طاعتهم ، ويدرسهم مناقبهم[1] ، وكان فخمَ المعاني فخمَ الألفاظ ، لو قلت لسانُه كان أردَّ[2] على هذا المُلْك من عَشْرةِ آلاف سيفٍ شَهِير ، وسِنانٍ طَرِير[3] ، لكان ذلك قولاً ومذهباً .

قال : حدثني عبد الملك بن صالح ، عن أبيه صالح بن علي ، أنَّ خاقان ملكَ الترك وقفَ مرة الجُنَيد بنَ عبد الرحمن[4] أميرَ خراسان ، وقد كان الجنيدُ هالَه أمره ، وأفزعه شأنه ، وتعاظَمه جموعُه وجَمعه ، وبَطِل به[5] ، وفطن به خاقانُ وعرف ما قد وقع فيه ، فأرسل إليه : ٣٧ و

« إنِّي لم أقفْ هذا الوقفَ وأُمسِكْ هذا الإمساكَ وأنا أريدُ مكروهاً ، فلا تَرُعْ . ولو كنتُ أريد عَلَةً أو مكروهاً لقد كنت انتسَفْتُ عسكرَك انتسافا

---

(١) يقال درسته الشيء درساً وأدرسته إياه : علمته إياه انظر اللسان (درس ٣٨٢) .

(٢) يقال هذا الشيء أرد من ذاك ، أي أنفع وأكثر عائدة .

(٣) الشهير : المشهور المسلول ، وإن كان لم ينص عليه في المعاجم المتداولة . والطرير : المحدد . وانظر البيان ٣ : ٢٧٣ .

(٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث ، الأزدي جمهرة أنساب العرب ٢٥٢ وفتوح البلدان للبلاذري ٦٠٣ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ وقد استعمله هشام ابن عبد الملك على خراسان سنة ١١١ وكانت له حروب مع خاقان ملك الترك الطبري ٨ : ٢٠٤ - ٢١٤ . وهو غير الجنيد بن عبد الرحمن بن عوف بن نجيد الكلابي . وقد ولي خراسان أيضاً . الجمهرة ٢٨٧

(٥) عن به : ضاق به وذهش فلم يدر كيف يصنع .

أعجلك فيه عن الروية وقد أبصرتَ موضعَ العورة . ولولا أن تعرفَ هذه المكيدة فتَعُود بها على غيرى من الأتراك ، لعرَّفتك موضعَ الانتشار والخلل والخطأ فى عسكرك وتعبيتك. وقد بلغنى أنَّك رجلٌ عاقل ، وأنَّ لك شرفاً فى بيتك وفضلاً فى نفسك ، وعلماً بدينك ، وقد أحببت أن أسأل عن شىء من أحكامكم لأعرفَ به مذهبكم ، فاخرُجْ إلىّ فى خاصّتك لأخرجَ إليك وحدى ، وأسائلك عما أحتاج إليه منفسى . ولا تحتفلْ ولا تحترسْ : فلَيس مثلى مَنْ غدَر ، وليس مثلى يُؤمِن من نفسه ، ومن مَكره وكيده ، ثم ينكُثُ بوعده . ونحن قومٌ لا نخدع بالعمل ، ولا نستحسن الخديعةَ إلاَّ فى الحرب ، ولو استقام أمر الحرب بغير خديعة لما جوّزنا ذلك لأنفسنا » .

فأبى الجُنَيد أن يَخْرج إليه إلاَّ وحدَه ، فقَصَلا من الصُّفوف . وقال : سَلْ عمّا أحببتَ ، فإنْ كان عندى جوابٌ أرضاه أخبتك ، وإلاَّ أشرتُ عليك بمن هو أبصر بذلك منّى .

قال : ما حكمكم فى الزّانى ؟

قال الجُنَيد : الزّانى عندنا رجلان : رجلٌ دفعنا إليه امرأةً تُغنيه عن حَرَم النّاس ، وتكفُّه عن حُرَم الجيران ؛ ورجلٌ لم نُعطِه ذلك ، ولم نَحُلْ بينه وبين أن يفعل ذلك لنفسه . فأمّا الذى لازوجةَ له فإنّا نجلده مائة جَلدة ونُحْضِر ذلك الجماعةَ من الناس لنشهّره ونحذّره به ، ونغرّبه فى البُلدان ليزيد فى شهرته وفى التّحذير منه ، وليَنزجر بذلك كلُّ من كان يُهِمُّ بمثل عمله . فأما الذى قد [أغنيناه[1]] فإنا نرجُمه بالجَنْدلِ حتّى نقتلَه .

---

(١) موضعها بياض فى الأصل . وإثباتها من ن ، س .

قال : حَسَن جميلٌ ، وتدبير كبير ، فما قولكم في الذي يَقذِف عفيفا بالزنى ؟

قال : يجلد ثمانين جلدةً ، ولا تقبل له شهادةٌ ، ولا نُصدِّق له حديثا .

قال : حَسَنٌ جميل ، وتدبير كبير ، فما حُكمكم في السارق ؟

قال : السارق عندنا رجلان : رجل يحتال لما قد أحرزه الناس من أموالهم حتى يأخذها سَقْب حيطانهم وبالتسلق من أعالي دُورهم : فهذا نقطع يَدَه التي سَرق بها ، ونَقَب بها ، واعتمد عليها . ورجل آخر يُخيف السبيل ، ويقطع الطريق ، ويكايد على الأموال[1] ، ويَشْهَرُ السلاح فإنْ منعه صاحب المتاع قتله ، فهذا نقتله ونَصلبه على المناهج والطُّرق . ٣٧ ظ

قال : حَسَن جميلٌ ، وتدبير كبير . قال : فما حُكمكم في الغاصب والمستلب ؟

قال : كلُّ ما فيه الشُّبهة ويجوز فيه الغَلَط والوُجوه ، كالغَصْب والاستلاب ، والجناية ، والسرقة لما يؤكل أو يُشرب فإنَّا لا نقطع فيما فيه شُبهة ونتمحَّل[2] لذلك وجهاً غيرَ السَّرِقة .

قال : حَسَنٌ جميلٌ وتدبير كبير . قال : فما حُكمكم في القاتل وقاطع الأُذُن والأنف ؟

---

(١) المراد بالمكايدة هنا الاحتيال والمعالجة . وفي الأصل : « يكابر » ، وأثبت ما في ن ، س .

(٢) في أصول ن : « ويتحمل » وقد جعلها فان فلوتن : « ويحتمل » ، وتبعه نسخة س . وما أثبت من الأصل أولى وأوفق .

قال : النَّفس بالنَّفس ، والعَيْن بالعين ، والأنفُ بالأنف . وإنْ قتل رجلا عَشَرَةٌ قتلْناهم . وتقتل القويُّ البدن بالضَّعيف البدن ، وكذلك اليدُ والرِّجل .

قال : حَسن جميلٌ وتدبير كبير . قال : فما تقولون فى الكذَّاب والنَّمَّام والقَرَّاط .

قال : عندنا فيهم الإقصاء لهم وإبعادُهم وإهانتهم ، ولا نقبل شهادتَهم ، ولا نصدِّق أحكامهم .

قال : وليس إلَّا هذا ؟

قال : هذا حوائنا على ديننا .

قال له : أمَّا النمَّام عندى ، هو الذى يُضرِّب بين الناس[1] ، فإنِّى أحبسه فى مكانٍ لا يرى فيه أحدا . وأمَّا القَرَّاط فإنِّى أكوِى استَه ، وأعاقب ذلك المكانَ فيه[2] . وأمَّا الكذَّاب فإنِّى أقطع الجارحةَ التى بها يكذب ، كما قطعتم اليدَ التى بها يَسرق ، وأمَّا الذى يُضحِك الناس ويعوِّدهم السَّخفَ فإنِّى أخرجه من سلطانى ، وأصْلح بإخراجه عقولَ رعيتى .

قال : فقال الحَنَيد بن عبد الرحمن : أنتم قومٌ تردُّون أحكامَكم إلى حوائر العقول . وإلى ما يَحسُن فى ظاهر الرأى : ونحن قومٌ نتبع الأنبياء . ونرى أنْ لم نَصلُح على تدبير العباد . وذلك أنَّ الله تعالى أعلمُ بعَيب المَصالح وسِرِّ الأمر[3]

---

(١) وكذا فى ن مع عدم سبق واو لكلمة « هو » فيهما لكن فى س . « وهو الذى يرفع الحديث بين الناس إشاعة » .

(٢) جملت فى ن ، س : « منه » .

(٣) ن ، س : « وسر الأمر » .

وحقائقه ، وتحصوله وعواقبه ، والناسُ لا يعمون ولا يَرَون الحزمَ إلّا على ظاهر الأمور . وكم من مُضيع يَسلم ، وحازم يعطب .

قال : ما قلتَ كلاماً أشرف من هذا ، ولقد ألقيتَ لي فكراً طويلا .

قال إبراهيم : قال عبدُ الملك : قال صالح : قال الجنيد : فلم أرَ أوفى ولا أنصفَ ولا أفهمَ ولا أذكى منه . ولقد وافقتُه ثلاثَ ساعاتٍ من النهار وما تحرّك منه شيء إلّا لسانه ، وما مشى شيء إلا أحرّكه . ٣٨ و

وهكذا يَصِفون مُلوكَ الترك ، يزعمون أنّ ساسان وخاقانَ الأكبرَ ، توافقا ببعض الكسور[1] ، وفَصَلا من الصَّفين ، وطالت المناجاة ، فلما افترقا قالوا : كان خاقانُ أركنَ وآدَب ، وكان مَرْكَب كِسرى أركن وآدَب[2] ، ولم يتحرّك من خاقانَ إلّا لسانه ، وكان يِرذونُه يرفع قائمةً ويضع أخرى ، وكان مركب كسرى كأنّما صُبّ صبّا ، وكان كسرى يحرّك رأسَه ويُشير بيده .

قالوا : ومن الأعاجيب أنّ الحارثَ بن كعب لا يقوم لحَزْم[3] ، وحزم لا تقوم لكِندةَ ، وكِندةُ لا تقوم للحارث بن كعب .

---

(١) كسور الأودية والجبال : معاطفها وشعابها ، لا يفرد لها واحد كما في اللسان . وقد حورت في ن ، س إلى «الجسور» خلافاً لما في الأصول ، وليس ما يدعو إليه .

(٢) أركن من الركانة ، وهي السكون والوقار . وفي جميع الأصول : «اركى» في هذا الموضع .

(٣) بنو حزم بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك ابن النجار . جمهرة أنساب العرب ٣٤٨ . وفي العرب حزم بن ربان بن حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة . الجمهرة ٤٥١ .

قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب فى الحارث : أنّ العربَ لا تقوم للتُّرك ، والتُّرك لا تقوم للرُّوم ، والرُّوم لا تقوم للعرب .

قال جهمُ بن صَفْوانَ الترمذىّ[1] : قد عرفنا ما كانَ بين فارسَ والتُّرك من الحرب ، حتّى تزوَّج كسرى أبْرَويز ، خاتونَ بنت خاقان ، يستميله بذلك الصِّهر ، ويدفَعُ بأسه عنه . وقد عَرفنا الحروبَ التى كانت بين فارسَ والرُّوم ، وكيف تساحلوا الظفرَ ، وبأىِّ سببٍ غُرِس الزَّيتون بالمدائن وسوسا[2] ، وبأىّ سببٍ بنيت الرُّوميّة[3] ولم سُمِّيت بذلك ، ولم بَنَى كسرى على الخليج قُبالة قُسطنطينيَّة النَّواويس[4] وبيوتَ النار . ولكن متى ظهرت الرُّوم على تُرك خراسان ظهوراً موالياً ، ضَربُوا بها المثل إلى آخر دارسه[5] ، ومَن هناك من الأشباه ، ومن يتخلّل هذا النسب .

وكانت خاتونُ بنت خاقانَ عند أبروز فولدت له شِيرويه . وقد ملك شِيرَوَيه بعد أبرويز ، فتزوَّج شيرويه مريم بنت قيصر ، فولدت له

---

(١) نسبة إلى ترمذ ، وكان قد أظهر دعوته بها . السمعانى ١٤٩ والفرق بين الفرق ١٩٩ والملل والنحل ١ : ١٠٩ . وقد قتل سنة ١٢٨ . البداية والنهاية ١٠ : ٢٧ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ . ويقال له أيضاً السمرقندى كما فى لسان الميزان وفى الأصول : « الزيدى » بالإهمال .

(٢) الذى فى معجم البلدان « شوشة » قال : قرية بأرض بابل .

(٣) هذه رومية المدائن ، وهى غير رومية الروم انظر معجم البلدان (رومية) .

(٤) النواويس : جمع ناووس ، وهى مقابر النصارى

(٥) كذا وردت هذه العبارة .

فيروزا شاهى[1] أمَّ يزيدَ الناقص[2] والوليد. وكان يقول: ولدنى أربعة أملاك: كسرى، وخاقان، وقيصر، ومَرْوان. وكان يرتجز فى حُروبه التى قُتل فيها الوليد بن يزيد بن عاتكةَ:

أنا ابنُ كسرى وأبى خاقانُ وقيصرٌ جدّى وجدّى مَروانُ[3]

فلما صار إلى الافتخار فى شِعره بالنَّجدة والثقافة بالحرب، لم يفخر إلّا بخاقانَ فقط فقال:

فإنْ كنتُ أُربى مُقبلًا ثم مُدبرا وأطلُع من طَودٍ زليق على مُهْرِ
فخاقانُ جدّى فاعرفى ذاكِ واذكرى أحاييرَهُ فى السَّهل والجبل الوعرِ[4] ٣٨ ظ

قوله «وأطلُع» يريد: وأنزل، وهى لغة أهل الشام[5] وأخذوها من مازلة العرب فى أوّل الدهر. وجعل دابَّتَه مُهرًا، لأنّ ذلك أشدُّ وأشقّ.

---

(١) فى الأصول: «فيروزا بناهى» تحريف. وفى الطبرى ٩ . ٤٦ أن اسمها «شاه آفريد بنت فيروز».

(٢) هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان. الطبرى ٩ : ٢٢ ، ٤٦ قال: «وإنما قيل يزيد الناقص لنقصه الناس الزيادة التى زادهموها الوليد بن يزيد فى أعطياتهم وذلك عشرة عشرة». وروى الطبرى أيضاً أنه سمى بذلك تلقيبا له من مروان ابن محمد، إذ سماه الناقص بن الوليد فسماه الناس الناقص لذلك. فهذا تعليل آخر وفى أمثلة النحويين: «الناقص والأشج أعدلا بنى مروان». والأشج: عمر ابن عبد العزيز، سمى بذلك لشجة أصابته.

(٣) فى الطبرى ٩ : ٤٦ :

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى وجدى خاقان

(٣) ن، س: «أخابره».

(٤) لم تسجلها المعاجم المتداولة ولا كتب الأضداد، لكنهم ذكروا طلع عنهم وعليهم بمعنى غاب واختفى. وطلع عنهم وعليهم بمعنى أقبل.

وقال الفضل بن العباس بن رَزِين : أتانا ذات يوم فرسانٌ من التُّرك ، فلم يبق أحد ممن كان خارجًا إلّا دخَلَ حِصنَه وأغلقَ بابَه ، وأحاطوا بحصنٍ من ذلك الحصون ، وأبصرَ فارسٌ منهم شيخًا يطّلع إليهم من فوق ، فقال له التركيّ : لئن لم تنزلْ إليَّ لأقتلنَّك قِتلةً ما قتلتُها أحدًا ! قال : فنزل إليه وفتح له الباب ، ودخلوا الحصن ، واكتسحوا كلَّ شيء فيه ، فضحِك من نُزوله إليه وفَتْحِه له وهو في أحصنِ موضعٍ وأمنعِ مكان ، ثم أقبلَ به إلى حصنٍ أنا فيه فقال : اشتروه منّي . قلنا : لا حاجةَ لنا في ذلك . قال : فإنّي أبيعُه بدرهم واحد . فرمينا إليه بدرهم فخلّى سبيله ، ثمّ أدبرَ عنا ومضى مع أصحابه ، فما لبث إلّا قليلًا حتّى عاد إلينا فوقف حيثُ نسمع كلامَه ، فراعنا ذلك ، فأخرج الدّرهم من فمه وكسرهُ بنصفين . وقال : لا يَسْوَى درهمًا[1] ، وهذا عَبْدٌ فاحِش ، فخذُوا هذا النّصفَ ، وهو على كلِّ حالٍ عالٍ جدًّا بالنّصف الآخَر

قال : فإذا هو أظرفُ الخلق .

قال : وكنّا نعرف ذلك الرجلَ بالجُبْن ، وقد كان سمِعَ باحتيال التُّرك في دخول المدن وعُبور الأنهار في الحروب ، فتوهّم أنه لم يتوعّد بفتح الباب[2] .

وقال ثُمامة : ما شبّهتُ الذَّرَّ إلّا بالتُّرك ؛ لأنّ كلَّ ذرّةٍ على حِدَتِها معها من المعرفة بادّخار الطّعم ، ومن الشَّمّ والاسترواح ، ونَجْب المذخَر[3] حتّى

---

(١) أي لا يساوي درهما . وقد أنكر هذه الكلمة أبو عبيد . وحكاها أبو عبيدة كما في اللسان (سوى ١٤٠) .

(٢) أي لم يكن كلامه وعيدا فحسب . وفي ن بعده . « إلا وعنده » . ثم أكملها فاو تي بعبارة « شيء من ذلك » .

(٣) النجب : الغص والقشر ، والمراد شق الحبوب انظر الحيوان ٤ . ٥-٦ =

لا ينبتَ فى جحره[1] ، ثم الاحتيال للناس فى الاحتيال لها بالصَّمامة والمِعاص والمزدجر[2] ، وتعليق الطَّعام على الأوتاد والبَرَّادات ، مثل الذَّرّ مع صاحبتها .

وقال أبو موسى الأشعرىّ : كل جنس يحتاج إلى أمير ورئيس ومدبِّر ، حتَّى الذَّرّ[3] .

وروى أبو عُمَر الضَّرير[4] ، أن رئيس الذَّرّ الرَّائدَ الذى يخرج أوّلا لشىء قد خَبَّه دونَ أصحابه ، لخصوصيّة خَصَّه الله تعالى بها ، ولَطافة الحِسّ ، فإذا حاولَ حملَه وتعاطى نَقْلَه ، وأعجزه ذلك بعد أن يُبْلِىَ عُذرا ، أتاهنّ فأخبرهنّ فرجَع ، وخرجْنَ بعده كأنَّها خيطٌ أسودُ ممدود . وليست ذَرَّةٌ أبدًا ٣٩ و تستقل ذَرَّةً أخرى إلّا واقفَتْها وسارَّتْها بشىء ثم انصرفتْ عنها[5] .

وكذلك الأنواعُ كلُّ واحدٍ منهم غير عاجزٍ عن معرفةِ مصلحة أمْره ، إلّا أنَّ التفاضل واجبٌ فى جميع أصناف الأشياء والنَّبات والنَّوات . وقد تختلف الجواهر وكلُّها كريم[6] ، وتتفاضل البِناق وكلُّها جَوَاد .

= ١٨ و ٧ : ٣٥ . وفى الأصل « نحب » بإهمال الحرف الأول والثالث . وجعلها فان فلوتن : « وتجب المزجر »

(١) فى الأصل : « حتى لايبيت إلا فى جحره » والوجه ما أثبت . انظر التنبيه السابق ومراجعه .

(٢) فى الأصل : « والمودجر » .

(٣) انظر الحيوان ٤ : ١٩ ، ٢٠ .

(٤) وكذا ورد اسمه فى البيان ٢ : ٦٩ . وفى بعض نسخ البيان « أبو عمرو الضرير » وورد فى الحيوان ٤ : ٢٠ « أبو عمرو الكفوف » .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٧ — ٨ .

(٦) فى الأصل : « وكله كريم » .

وقد قلنا فى مناقب جميع الأصناف بجُمَل ما انتهى إلينا وبلَغه عِلمُنا ؛ فإنْ وقعَ ذلك بالموافقة فبتوفيق الله وصُنْعه ، وإن قصَّر دون ذلك فالذى قصّر بنا نقصانُ عِلمنا ، وقلّةُ حفظنا وسماعنا . فأمّا حُسْنُ النِّيّة ، والذى نُضمِر من المحبّة والاجتهاد فى القَرْبة ، فإنا لا نرجع فى ذلك إلى أنفسنا بلائمة . وبين التقصير من جهة التفريط والتّضييع ، وبين التقصير من جهة العَجز وضَعفِ العَزْم ، فرقٌ .

ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كلُّ صِنفٍ من هذه الأصناف يريد الاستعلاء على صاحبه ، ويكون غايته إظهارَ فَضْلِ نفسِه وإن لم يصل إلى ذلك إلّا بإظهار نقص أخيه ووليّه[1] . لكان كتاباً كبيراً ، كثيرَ الورق عظيما ، ولكان العددُ[2] الذين يَقْصُرون لؤلؤه بالعلم والانتفاع فى المعرفة أكثرَ وأظهر . ولكنّا رأينا أنّ القليل الذى يُجمع خَيْرٌ من الكثير الذى يُمَزّق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأله المَونَ والتسديد ، إنّه سميع قريبٌ ، فعّالٌ لما يريد .

تم الكتاب ولله المنة ، وبيده الحول والقوة

والله الموفق للصواب

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه وهو حسبُنا ونعم الوكيل .

---

(١) فى ن ، س : « وولده » .

(٢) فى ب . « عدد » .

٢

رِسَالة

المِعَاش وَالمعَادِ

أوْ

الأخْلاق المحْمُودَة وَالمذمُومَة

كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الرسالة من نسختين في الأصل :

النسخة الأولى عنوانها : (رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق المحمودة والمذمومة) وهي ثاني رسالة في مجموعة الأصل .

والنسخة الثانية عنوانها : (رسالة للعباد والعائش في الأدب وتدبر الناس ومعاملاتهم كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد) وترتيبها في المجموعة هو الرابع ، إذ يفصل بين النسخة الأولى والثانية رسالة أخرى هي (كتاب كتمان السر وحفظ اللسان) .

أما محمد بن عبد الملك الزيات فهو في غنى عن التعريف ، وإن كنت قد عرفت به في كتابي الحيوان والبيان .

وأما محمد بن أحمد بن أبي دواد فكان قاضياً كأبيه . ولاه المتوكل على قضاء بغداد والأعمال بعد أن فالج أبوه سنة ٢٣٣ ، ثم عزله المتوكل سنة ٢٣٧ . وتوفي أبو الوليد بعد سنة ٢٣٩ ومات أبوه بعده بعشرين يوماً[1].

والراجح أن الرسالة كتبها الجاحظ إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ، لا إلى محمد بن عبد الملك ؛ لأنه يذكر في صدرها أنه عرف المكتوب إليه هذه الرسالة « أيام الحداثة » . ولا ينطبق ذلك على محمد بن عبد الملك الزيات . فقد كانت حياته بين سنتي ١٧٣ ، ٢٣٣ ولم تعرف صلة الجاحظ به إلا في أيام ساعده .

---

(١) تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ — ٣٠١ وانظر ترجمة أبيه وإخوته جميعاً أسماء المعرب ٣٢٨ وتاريخ بغداد ٤ : ١٤١ — ١٥٦ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ — ٢٦ . ولقد انفرد ابن خرداذبه بنسبة أبيه أحمد بن محمد بن أبي دواد .

وتجد ما يختص النسبة بالمعاش والمعاد في ص ٩٥س ١٧ .

وقد حققت هذه الرسالة على أربع نسخ :

١ — نسخة الأصل في الموضع الأول من المجموعة .

٢ — نسخة الأصل في الموضع الثاني من المجموعة ، ورمزها د .

٣ — نسخة المتحف البريطاني التي تمثلها مصورة الجامعة ، ورمزها م .

٤ — نشرة باول كراوس ومحمد طه الحاجري ورمزها ط .

بسم الله الرحمن الرحيم

حَفِظَكَ اللهُ وأمتعَ بك [1]

أما بعدُ فإنَّ جماعاتِ أهل الحكمة قالوا : واجبٌ على كلِّ حكيمٍ أن يُحسِن الارتيادَ لموضع النُّجْعة ، وأن يبيِّن أسبابَ الأمور ويمهِّدَ لعواقبها . فإنَّما حُمِدت العلماء بحسن التثبُّت فى أوائل الأمور ، واستشعارهم [2] بعقولهم ما تجىء به العواقب ، فيعلمون عند استقبالها ما تؤول به الحالات فى استدبارها . وبقدر تفاوتهم فى ذلك تستبين فضائلهم . فأمَّا معرفة الأمورِ عند تكشُّفها وما يظهر من خَفِيَّاتها فذاكَ أمرٌ يعتدل فيه الفاضل والمفضول ، والعالمون والجاهلون [3] .

وإنِّى عرَفتك ـ أكرَمك الله ـ فى أيام الحداثة ، وحيث سلطان اللَّهو المُخلِق للأعراض أغلبُ على نظرائك ، وسُكر الشباب والجِدَة [4] المتحيِّفَين للدِّين والمروءة مستولٍ على لِدَاتك فاخترت أنت وهم [فعفَّتهم [5]] ببَسْطة القدرة وحُمَيَّا الحداثة ، وطَوْلِ الجِدَة ، مع ما تقدَّمتهم فيه من الوسامة فى الصُّورة ، والجمال فى الهيئة . وهذه كلُّها أسبابٌ [تكاد أن [6]] توحى

---

(١) « حفظك الله وأمتع بك » من د فقط .

(٢) د : « واستشراقهم » .

(٣) م : « والعالم والجاهل » .

(٤) الجدة ، كعدة : اليسار والسعة والغنى . ومثلها الوحد مثلثة الواو : م : « الحدة » تصحيف

(٥) التكملة من م .

(٦) التكملة من م .

الانقيادَ للهوى ، ولَجَجٌ من المهالك لا يَسلَمُ منها إلاَّ المتقطع القرين فى سِحَّة الفطرة ، وكمال التعقل . فاستعبدَتْهم الشَّهواتُ حتى أعطَوها أزِمَّة أديانهم ، وسلَّطوها على مُروءاتهم وأباحوها أعراضَهم ، فآلت بأكثرهم الحالُ إلى ذُلّ النَّدم وفقد عِزّ الغنى فى العاجل ، والنَّدامة الطويلة والحسرةِ فى الآجل .

وخرجتَ نسيجَ وحدِك ، أوحديًّا فى عصرك[1] ، حكَّمت وكيلَ الله عندَك ـ وهو عقلُك ـ على هواك ، وألقيتَ إليه أزِمَّةَ أمرك ، فسلَكَ بك طريقَ السَّلامة[2] ، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذَّات أكثرَ مما بلغوا ، ونال بك من الشَّهوات أكثر مما نالوا ، وصرَفك من صوف النِّعَم[3] أكثر مما تصرَّفوا ، وربطَ عليك من بِرَم الله التى خوَّلك ما أطلقَه ٤١ و
من أيديهم إيثارُ اللَّهو[4] وتسابطُهم الهوى [على أنفسهم[5]] ؛ فخاض بهم سُبُلَ تلك اللَّجَج[6] ، واستنقَذَك من تلك المعاطب ، فأخرجكَ سليمَ الدِّين ، وافرَ المروءة ، بقىَّ العرض ، كثير الثَّراء ، بيِّن الجِدَة[7] . وذلك سبيلُ مَن كان ميلُه إلى الله تعالى أكثرَ من ميلِه إلى هواه .

---

(١) هذا ما فى د . وفى الأصل و م : « نفسك »

(٢) هذا ما فى د . وفى الأصل : « طرق » وفى م : « سبيل » .

(٣) هذا ما فى د . . وفى الأصل : « النعم » .

(٤) د : « إيثار الهوى » .

(٥) هذه من د

(٦) فى الأصل . م : « خاض بك تلك اللجج » ، وأثبت ما فى د

(٧) هذه الكلمة والتى قبلها ساقطتان من د . وفى الأصل ، م: « من الجدة » ،

فلم أزَلْ [أبقاك الله[1]] فى أحوالك تلك كلِّها بمضيلتك عارفاً ، ولك بنعَم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهر أمورك المحمودةِ تدعونى إلى الانقطاع إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدنى رغبةً فى الاتِّصال بك ، ارتياداً منى لموضع الخِيَرة فى الأخوَّة ، والتماساً لإصابة الاصطفاء فى المودَّة ، وتخيُّراً لمستودع الرَّجاء فى النَّائبة .

فلما مَحصَتْك الخِبرةُ ، وكشَفَك الابتلاء عن المحمدة ، وقَضَتْ لك التَّجارِبُ بالتَّقدِمة ، وشهدت لك قلوبُ العامَّةِ بالقَبول والمحبَّة ، وقَطَع الله عُذْرَ كلِّ من كان يَطلُب الاتِّصالَ بك ، طلبتُ الوسيلةَ إليك والاتِّصالَ بحبلك ، ومَنَتُّ بحُرمة الأدب وذِمام كرمك . وكان من نِعمة الله عندى أنْ جعل أبا عبد الله[2] ـ حفظه الله ـ وسيلتى إليك ، فوجدت المطلبَ سهلاً والمرادَ محموداً . وأفضيت إلى ما يحوز الأُمنيَّة ويفوت الأمل ، فوصلتَ إخاىَ[3] بمودَّتك ، وخلطتَنى بنفسك ، وأشركتنى فى مراعى ذَوِى الخاصَّة بك ، تفضُّلاً لا مجازاة ، وتطوُّلاً[4] لا مكافاة ، فأمنت الخطوبَ ، واعتليتُ على الزَّمان ، واتخذتك للأحداث عُدَّةً . ومن نوائب الدهر حِصناً منيعاً .

فلمَّا حُرْتُ المؤانسة ، وتقلَّبت من فضلك فى صُوف النِّعمة ، وزاد بصرى من مَواهلك فى الشُّرور والخَبْرة ، أردتُ خِبرة المشاهدة ، فنوتُ

---

(١) التكملة من أحد أصول ط .

(٢) لعله يعنى أبا عبد الله أحمد بن أبى دواد

(٣) د « رجاى » .

(٤) د : « وتكرما » .

أحلاقك ، وامتنعت شِيَمَك ، وعجمت مداهيك على حين غَفَلاتك ، وفى
٤١ ظ الأوقات التى يقلُّ فيها تحفُّظك . أراعى حركاتِك ، وأراقب مخارج أمرك ومَهْيَك ، فأرى [من] استصغارك لعظيم النِّعم التى تَنْعَمُ بها ، واستكثارك لقليل الشُّكر من شاكريك ، ما أعرف به[٢] [و] بما قد بلوت من غيرك ، وما قد شهدت لى به التجارب ، أنَّ ذلك منك طبعٌ غير تكلُّف .

هيهاتَ ! ما يكاد ذو التكلُّف أن يَخْفَى على أهل الفَطَاوة[٣] ، فكيف على مثلى من المتصفِّحين . وزادتنى المؤانسة فيك رغبةً ، وطول العِشرة لك محبّة ، وامتحانى أفاعيلَك لك تفضيلاً ، وطاعتك دينونةً .

وكان من تمام شكرى لربِّى ولىِّ كلِّ نعمة ، والمبتدئ بكلِّ إحسان ، الشُّكرُ لك والقيامُ بمكافأتك بما أمكنَ من قولٍ وفعل[٤] ؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى نَظَم الشُّكر له بالشُّكر لذى النِّعمة من خَلْقه ، وأبَى أن يقبلَهما إلاَّ معاً : لأنَّ أحدهما دليلٌ على الآخَر ، وموصولٌ به . فمن ضَيَّع شكر ذى نعمة من الخلق فأمْرَ الله ضيَّع ، وشاهده استخفَّ[٥] .

ولقد جاء بذلك الخبرُ عن الطَّاهر الصادق صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر للناس لم يشكر لله » .

---

(١) النكلة من أحد أصول ط .

(٢) فى الأصل و د : « أعرف » فقط . والكلمة التى قبلها والتى بعدها من أحد أصول ط . وقد زدت الواو بعد هذه العبارة ليلتئم القول .

(٣) فى الأصل و د : « على الفاة » ولم يعرف هذا الجمع للفى ، ولا هو مقيس وأثبت ما فى م .

(٤) د : « وعمل » .

(٥) الشاهد . الدليل . فى الأصل : « وشهادته » ، وأثبت ما فى د

ولعمرى إنّ ذلك لموجودٌ فى الفطرة ، قائم فى العقل : أنّ مَن كفر بِمَ الخَلْق كان لِنعم الله أكفر ؛ لأنّ الخالق يُعطى بعضُهم بعضاً بالكُلْفة والمشقّة ، وبِثقَل العطية على القلوب ، والله يعطى بلا كُلْفة . ولهذه العلّة جمع بين الشُّكر له والشكر لذَوِى النِّعَم من خلقه .

فلما وجبت علىّ الحجّة بشُكرك ، وقطع عُذرى فى مكافأتك ، اعترفتُ بالتقصير عن تقصّى ذلك ، إلاّ أنّى بسطتُ لسانى بتقريظك ونشرِ محاسنك . موصولٌ ذلك منّى[1] عند السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال : « من أُودِع عُرفاً فليشكره ، فإن لم يمكنه فلينشرهُ ، فإذا نشره فقد شَكَره ، وإذا كتمه فقد كَفَره » .

ثم رأيت أنْ قد بقِىَ علىّ أمرٌ من الأمور يمكنى فيه ذِكْرك ، وهو عندى عَتيد ، وأنت عنه غير مستغنٍ . والمنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة إن شاء الله. ٤٢ و

ولم أرل أبغاكَ اللهُ بالموضع الذى قد عرفتَ[2] ، من جَمْع الكُتُب ودراستِها والنَّظَر فيها ، ومعلومٌ أنّ طُول دراستها إنّما هو تصفّح عقول العالمين ، والعلمُ بأخلاق النبيّين ، وذوى الحكمة من الماضين والباقين من جميع الأمم ، وكتبِ أهل الملل .

فرأيتُ أن أجمع لك كتاباً من الأدب ، جامعاً لعلم كثيرٍ من المعاد والمعاش ، أصِفُ لك فيه علَلَ الأشياء ، وأخبرُك بأسبابها وما اتّفقت عليه محاسنُ الأمم .

---

(١) فى الأصل : « عندى » وأثبت ما فى د .

(٢) د : « علمت » .

وعلمتُ أنّ ذلك من أعظم ما أبرّك به[1] ، وأرجحِ ما أتقرّبُ به إليك . وكان الذى حداني على ذلك ما رأيتُ الله قَسَمَ لك من الفَهْم والعقل ، وركّب فيك من الطّبع الكريم .

وقد أجمعت الحكماء[2] أنّ العقل المطبوع والكرمَ الغريزىّ لا يبلغان غايةَ الكمال إلاّ بمعاونة العقل المكتسَب . ومثّلوا ذلك بالنّار والحطب ، والمِصباح والدُّهن . وذلك أنّ العقل الغريزىّ آلة والمكتسَب مادّة ، وإنّما الأدبُ عَقلُ غيرِك تزيده فى عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واصفى الآداب قبلى قد عَهِدوا إلى العابرين[3] بعدَهم فى الآداب عُهوداً قاربوا فيها الحقّ ، وأحسنوا فيها الدلالة ، إلاّ أنّى رأيت أكثرَ ما رسَموا من ذلك فروعاً لم يبيّنوا عللَها ، وصفاتٍ حسنةً لم يكشفوا أسبابها ، وأموراً محمودة لم يدلّوا على أصولها .

فإنْ كان ما فعلوا من ذلك [روايات رَوَوها عن أسلافهم ، و[4]] وراثاتٍ وَرّثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلةَ من استنبط[5] . وإنْ كانوا تركوا الدّلالة على عِلل الأمور[6] التى بمعرفة عللها[7] يُوصل إلى

(١) د : « أسرك به » .
(٢) م : « وقد اجتمعت الحكماء على » .
(٣) د : « العابر » .
(٤) التكملة من د ، م .
(٥) د . « يستنبط » . م : « استنب »
(٦) هذا ما فى الأصل و م وفى د . « على أعيان الأمور »
(٧) د : « اللاتى على معرفة عللها » وفى الأصل : « التى فى معرفة عللها » وأثبت ما فى م

مباشرة اليقين فيها ، ويُنتهى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَقِفُوا فى ذلك منزلة الظنّ بها . ولن تجدوا وصايا أنبياء الله أبداً إلّا مبيّنة الأسباب ، مكشوفة العِلل ، مضروبةً معها الأمثال .

فألّفت لك كتابى هذا إليك ، وأنا واصفٌ لك فيه الطبائعَ التى رُكّب ٤٢ ظ
عليها الخلق ، وفُطرت عليها البَرايا كلُّهم ، فهم فيها مستوون[1] ، وإلى وجودها فى أنفسهم مضطرّون ، وفى المعرفة بما يَتولّد عنها متّفقون .

ثمّ مبيّنٌ لك كيف تفترق بهم الحالات ، وتتفاوَتُ[2] بهم المنازل ، وما العلل التى يُوجب بعضُها بعضا ، وما الشىء الذى يكون سببًا لغيره ، متى كانَ الأوّلُ كان ما بعدَه ، وما السَّبب الذى لا يكون الثّانى فيه إلّا بالأوّل ، ورُبّما كان الأول ولم يكن الثانى . وفرقَ ما بين الطّبع الأول وبين الاكتساب والعادةِ التى تصير طبعًا ثانيا . ولِمَ اختلفَ ذلك ؟ وكيف دواعى قلوبِ الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه . وما أسباب نوازع شهواتهم ؟ وما الشّىء الذى يُحتال لقلوبهم به حتى تستمال ، وحتى تُؤنس بعد الوَحْشة ، وتَسكن بعد النِّفار ؟ وكيف يُتأتّى نَقْصُ[3] ما فيهم من الطبائع المذمومة حتّى تُصرف إلى الشِّيَم المحمودة ؟ وراسمٌ لك فى ذلك أصولًا ، ومبيّن لك مع كلّ أصل منها علّتَه وسببَه .

---

(١) فى الأصل : « متساوون » وأثبت ما فى د .

(٢) أى تتفاوت ، بحذف إحدى التاءين وفى د : « وتتفاوت » .

(٣) د : « لنقص » .

وقد علمتَ أنَّ فى كثيرٍ من الحقّ مشبّهات لا تستبان إلّا بعد النظر ، وهناك يختل[1] الشّيطانُ أهلَ الغفلة ، وذاك أنّه لا يجد سبيلا إلى احتداعهم عن الأمور الظاهرة[2] .

فلم أدَعْ من تلك المواضع الخفيّة موصمًا إلّا أقمتُ لك بإزاء كلّ شبهة منه دليلا[3] ، ومع كلّ حقٍّ من الحقّ حجّةً ظاهرة ، تستنبط لها غوامضَ البرهان وتستنبن بها دقائق الصّواب[4] ، وتستشفّ بها سرائرَ القلوب ، فتأتى ما تأتى عن بيّنة ، وتدع ما تدعُ عن خِبرة ، ولا يكون بك وحشةٌ إلى معرفةِ كثيرٍ مما يغيب عنك ، إذا عرفت العالَ والأسباب ، حتّى كأنك شاهدٌ لضمير كلّ امرئٍ ، لمعرفتك بطبعه وما ركّب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه

٤٣ و ثمّ ؛ غيرَ راضٍ لك بالأصول حتّى أنتضى لك ما بامَه على من العروع . ثم لا أرسم لك من ذلك [إلّا[5]] الأمرَ المعقول فى كل طبيعة ، والموجود فى فِطر البرايا كلّها[6] . فإنْ أحسنتَ [رعايةَ[7]] ذلك وأقمته على حُدوده ، ونزّلته منازلَه ، كان عمرُك ـ وإن قصرت أيّامُه ـ طويلا ، وفارقتَ ما لا بدّ لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

---

(١) فى الأصل : « يخيل » صوابه فى د . ويختل : يخدع .

(٢) فى الأصل : « عن الأمر الظاهر » ، وأثبت ما فى د .

(٣) كلمة « منه » ليست فى الأصل ، وإثباتها من م وفى د : « منها دليلا » .

(٤) هذا ما فى د . وفى الأصل : « دقائق الصواب » .

(٥) التكملة من د .

(٦) فى الأصل : « فى فطرة » ، وأثبت ما فى د

(٧) التكملة من د

واعلم أنَّ الآدابَ إنَّما هي آلاتٌ تَصلح أن تُستعمَل في الدِّينِ وتُستعمَلَ في الدنيا ، وإنَّما وُضعت الآداب على أصول الطبائع . وإنَّما أصول أمور التدبير في الدِّين والدُّنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملةُ في الدِّين فسدتْ فيه المعاملةُ في الدنيا ، وكلُّ أمرٍ لم يصحَّ في معاملات الدُّنيا[1] لم يصح في الدِّين . وإنَّما الفرق بين الدين والدُّنيا اختلافُ الدارين من الدُّنيا والآخرة فقط ، والحكم هاهنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ، ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا[2] ﴾ ، قال ابن عباس في تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يَعرف به كيف دُبِّرت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدِّين ، فإنَّما ينتقل بذلك العقل . فبقدْر جهله بالدُّنيا[3] يكون جهلُه بالآخرة أكثر ؛ لأن هذه شاهدةٌ وتلك غَيب[4] ؛ فإذا جهل ما شاهَد فهو بما غاب عنه أجهل .

فأوَّلُ ما أُوصيك به ونفسي تقوى الله : فإنَّها جِماعُ كلِّ خير ، وسببُ كلِّ نجاة ، ولِقاح كلِّ رشد . هي أحرزُ حرزٍ ، وأقوى مُعين ، وأمنَع جُنَّة . هي الجامعةُ محبةَ قلوب العباد[5] ، والمستقبلةُ بك محبَّةَ قلوبِ من لا تَجرى عليهم

---

(١) د : « في معاملة الدنيا »

(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

(٣) في النسخ : « في الدنيا » ، والوجه ما أثبت .

(٤) الشاهدة : نقيض الغائبة .

(٥) في الأصل : « قلوب محبة العباد » . صوابه في د

نعمك[١] . فاجعلها عدّتك وسلاحَك[٢] ، واجعل أمر الله ونهيه نصب عينيك .

٤٣ ظ وأحذّرك وعسى اللهَ والاغترار به ، والإدهان فى أمره ، والاستهانةَ ببراهنه ، والأمنَ لمكره ؛ فقد رأيتَ آثارَه[٣] فى أهل ولايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضين عبرةً ، وللغابرين مثلا .

واعلم أنّ خَلْقه كلّهم بَرِيئَته ، لا وُصْلةَ بينه وبين أحدٍ منهم إلّا بالطاعة ، فأولاهم به أكثرهم تزيُّدًا فى طاعته ، وما خالَف هذا فإنّه أمانىّ وغرور .

وقد مكّن الله لك من أسباب المقدرة ، ومَهّدَ لك فى تمكين العفى والبَسْطة ما لم تُنْحَله بحيلة[٤] ، ولا بلغْتَه بقوّة[٥] ، لولا فضله وطَوْلُه . ولكنّه مكّنك ليبلو خَبَرك ، ويختبر شُكرك ، ويحصىَ سعيَك ، ويكتب أثرَك ، ثم يوفّيك أجرَك ، ويأخُذَك بما اجترحَتْ يدُك أو يَعفوَ ؛ فأهلُ العفو هو .

ولله ابتلاءانِ فى خَلْقه — والابتلاء هو الاختبار — ابتلاء بنعمة ، وابتلاء بمصيبة . وبقَدر عظمها يجب التّكليف من الله عليها[٦] ؛ فبقدر ما خوّلك من النعمة يستأديك الشّكر[٧] .

---

(١) كلمة « نعمة » ساقطة من الأصل . وإثباتها من د .

(٢) د : « عونك وسلاحك » .

(٣) د : « أثره »

(٤) نحله ، من النحلة وهى العطية . د : « ما لم تنله بحيلة » .

(٥) فى الأصل : « ولم تلقنه بقوة » ، وأثبت ما فى د .

(٦) د : « وبقدر عظمها تجب التكليف عليها » .

(٧) استأداه المال ونحوه : استحرجه منه وطلب أداءه

ولو تقصّى الله على خلقه لعذّبهم ؛ ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ[1] ﴾ . ولكنه قَبِل التوبة ، وأقالَ العثرة ، وجعل بالحسنة أضعافَها .

واعلمْ أنّ الحكمَ فى الآخرة هو الحكمُ فى الدُّنيا : ميزانٌ قِسط ، وحكمٌ عدل . وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ[2] ﴾ .

وهذا مثلٌ ضربَه الله ؛ لأنّ الناس يعلمون أن لو وضع فى إحدى كِفّتَى الميزان شيء ولم يكُ فى الأخرى قليلٌ ولا كثير ، لم يكنْ للوزنِ معنًى يُعقَل . وذلك أن أحدًا من الخَلق لا يخلو من هَفوة أو زَلّة أو غَفلة ؛ فأخبرَ أنّ من كان حسناتُه الراجحةَ على سيئاته ، مع النَّدَم على السَّيئات ، كان على سبيل النجاة ، وطريق الفوز بالإفلاح . ومن مالت سيّئاته بحسناته كان العطبُ ٤٤ و والعذاب أولَى به .

وكذلك حكمه فى الدنيا ؛ لأنّه قد تولّى أولياءه من خلقه وشَهِد لهم بالعدالة ، وقد عاتَبَهم فى بعض الأمور لغلبة الصَّلاح [فى أعمالهم وإن هفَوا ، وتبرّأ من آخرين وعادام لغلبة الجور[3]] على أفاعيلهم[4] ، وإن أحسَنوا فى بعض الأمور .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآية ١٠٢ — ١٠٣ من سورة المؤمنون

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « على أعمالهم » .

وكذلك جرتْ معاملاتُ الخَلْق بينهم ، يُمدِّحون العادلَ بالعالب من فعله وربَّما أساء ، ويفسِّقون الفاسق وربَّما أحسن . وإنما الأمورُ بعواقبها ، وإنَّما يُقضَى على كلِّ امرئ بما شا كلَ أحوالَه .

فهذه الأمورُ قائمةٌ فى العقول ، جرت عليها المعاملة ، واستقامت بها السياسة ، لا اختلافَ بين الأمَّة فيها .

فلا تُغْبَنَنَّ حَظَّك من دِينك[1] ، وإن استطعتَ أن تبلغ من الطَّاعة غاياتِها فافْعَلْ ، وإلَّا فاجهَدْ أن يَكون أغلبُ أفعالك عليك الطَّاعةَ[2] ، مع النَّدامة عند الإساءة ، ويكون ميلُك عند الإساءة ، إلى الله أكثر . ولقه يوفِّقك .

اعلمْ أنَّ اللهَ جلَّ ثناؤه خَلَق خلْقه ، ثمَّ طبعهم على حبِّ اجترار المنافع[3] ، ودفع المضارّ ، ونقص ما كان بخلاف ذلك[4] . هذا فيهم طبعٌ مركَّب ، وجِبِلَّة مفطورة ، لا اختلافَ بين الخلْق فيه ؛ موجودٌ فى الإنس والحيوان ، لم يدَّعِ غيره مدَّعٍ من الأوَّلين والآخِرين . وبقدر زيادةِ ذلك ونُقصانه تزيد المحبَّة والبغضاء ؛ [فنقصانُه[5]] كزيادته تميل الطَّبيعة معها[6] كيل كِفَّتى الميزان ، قلَّ ذلك أو كثُر .

---

(١) فى الأصل : « فلا تعتبر » ، صوابه فى د .

(٢) فى الأصل : « أفاعيلك الطاعة » ، وأثبت ما فى د

(٣) اجترار المنافع : اجتلابها وكلة « حب » ساقطة من د .

(٤) فى الأصل : « ونقص من كان » ، صوابه فى د .

(٥) تكملة ضرورية ليزن بها الكلام

(٦) فى الأصل ، د : « معها »

وهاتان جبلتان داخل فيهما جميع مَحَابّ العباد ومَكارههم . والنَّفس في طبعها حبُّ الرَّاحة والدَّعة ، والازدياد والعلوّ ، والعِزّ والغَلَبة ، والاستطراف والتَّنوّق[1] ، وجميع ما تستلذ الحواسّ من المناظر الحسنة ، والروائح العَبِقة ، والطُّعوم الطَّيِّبة[2] ، والأصوات المونقة ، والملامس اللَّذيذة . ومما كراهيته[3] في طباعهم أضدادُ ما وصفتُ لك وخلافه .

فهذه الخلالُ التي تجمعها خَلتان[4] غرائز في الفِطَر ، وكوامن في الطَّبع ؛ جِبِلَّةٌ ثابتة ، وشيمة مخلوقة . على أنَّها[5] في بعض أكثرُ منها في بعض ، ولا يعلم قدرَ القلَّة فيه والكثرة إلَّا الذي درَّهم . ٤٤ ظ

فلمَّا كانت هذه طباعَهم ، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم ، وجعل في ذلك مَلاذَّ لجميع حواسِّهم ، فتعلَّقت به قلوبُهم ، وتطلَّعت إليه أنفسهم . فلو تَرَكهم وأصلَ الطبيعة ، مع ما مكَّن لهم من الأرزاق المشتهاة في طبائعهم ، صاروا إلى طاعة الهوى ، وذهب التعاطف والتبارّ . وإذا ذهبا كان ذلك سببًا للفساد ، وانقطاعِ التَّناسل ، وفناء الدُّنيا وأهلها ؛ لأنَّ طَبْع النفس لا يسلس بعطيَّةٍ قليلٍ ولا كثيرٍ مما حَوته ، حتَّى تعوَّض أكثر مما تُعطِي ، إمَّا عاجلًا وإما آجلًا مما تستلذُّه حواسُّها .

---

(١) التنوق في الشيء : التعمد والمبالغة فيه . مثل التأنق . وفي المختين : « التلون » ، وقد ارتضيت هذا التصحيح من ناشر ط .

(٢) في الأصل : « والطعم ذو الطيبة » ، وأثبت ما في د

(٣) هذا ما في د وفي الأصل : « كراهته »

(٤) يعني : « الحاب والكاره » . وفي د : « التي وصفت لك تجمعها خلتان » . ولا وجه لهذه الزيادة .

(٥) د : « إلا أنها »

فعلِمَ اللهُ أنَّهم لا يتعاطعون ولا يتواصلون ولا ينقادون[١] إلاَّ بالتأديب ، وأنَّ التأديب ليس إلاَّ بالأمر والنَّهى ، [وأنَّ الأمر والنهى[٢]] غير ناجعَين فيهم إلاَّ بالترغيب والترهيب اللذَين فى طباعهم[٣] . فَدعاهم بالتَّرغيب إلى جَنَّته ، وحملها عوضاً ممَّا تركوا فى حب طاعته[٤] ، وزجَرهم بالتَّرهيب بالنار عن معصيته ، وحوَّفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تَرَكهم جلَّ ثناؤه والطِّباعَ الأوَّل[٥] جَرَوْا على سَنَن الفِطرة ، وعادة الشِّيمة[٦] .

ثم أقامَ الرَّغبة والرَّهبةَ على حدود العَدل ، وموازين النَّصَفة ، وعدَّلهم تعديلاً متقنا ، فقال : ﴿ فمن يَعْمَل مِثقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ . ومَن يَعمل مِثقالَ ذَرَّةٍ شرًّا يرَه[٧] ﴾ .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنَّه غير داخلٍ فى تدبيره الخللُ ، ولا جائزٌ عنده المحاباة ؛ ليعملَ كلُّ عاملٍ على ثقةٍ ممَّا وعَده وواعَده ، فتعلَّقت قلوبُ

---

(١) ولا ينقادون ، ساقطة من د .

(٢) التكملة من د .

(٣) د : « طبائعهم » .

(٤) فى الأصل : « طاعتهم » ، وأثبت ما فى د .

(٥) الطباع : الطبيعة والسجية . قال الزجاجى : « الطباع واحد مذكر كالنحاس والنجار » ، يعنى بكسر أولها انظر اللسان (طبع) . وفى د : « والطبع الأول » ، وكلاهما متجه .

(٦) م : « وعادات الشيمة » .

(٧) الآية ٧ — ٨ من سورة الزلزال .

العباد بالرغبة والرهبة ، فاطَّردَ التدبير ، واستقامت السِّياسة ، لموافقتهما[1] ما في الفِطرة ، وأخذها بمجامع المَصلحة .

ثمَّ جعلَ أكثر طاعته فيما تَستثقل النفوس ، وأكثرَ معصيته فيما تَلَذّ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكاره ، والنارُ بالشهوات[2] » . [يخبر أنَّ الطريق إلى الجنّة احتمال المكاره ، والطريق إلى النار اتباع الشهوات[3]] .

فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلاَّ بما وصفتُ لك من الرَّغبة والرَّهبة ، فأعزُّ الناسِ رأياً وأخطؤهم تدبيراً ، وأحمقهم بموارد الأمور ٤٥ و
ومصادرها ، من أمَّل أو ظنَّ أو رجا أنَّ أحداً من الخلق ـ فوقه أو دونه أو من نظرائه[4] ـ يصلح له ضميره ، أو يصحُّ له بخلاف ما دبَّرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم .

فالرَّغبة والرَّهبة أصلاً كلِّ تدبير ، وعليهما مدار كلِّ سياسة ، عطلتْ أو صلحت . فاجعلهما مِثالَك الذي تَحتذي عليه ، وركنَك الذي تستند إليه . واعلمْ أنَّك إن أهملت ما وصفتُ لك عرَّضتَ تدبيرك للاختلاط .

---

(١) يعني الرغبة والرهبة . وفي الأصل : « لموافقها » ووجهه من د .

(٢) رواه مسلم والترمذي وأحمد عن أنس . ومسلم أيضاً عن أبي هريرة . الجامع الصغير ٢٧٣٢ .

(٣) التكملة من د .

(٤) في الأصل : « أو من يظن أن » مع سقوط هذه العبارة من د ، وصوابها ما رأيت واظر ما سيأتي

وإنْ آثرتَ الهوينا واتّكلت على الكفاية في الأمر الذي لا يجوز فيه إلاّ نظرك، وزجّيت أمورك على رأي مدخول، وأصل غير محكَم، رجع ذلك عليك بما لو حُكِّم فيك عدوُّك كان ذلك غاية أمنيّته، وشفاء غيظه.

واعلم أنّ إجراءك الأمورَ مجاريَها، واستعمالَك الأشياء على وجوهها، يجمع لك ألفةَ القلوب، فيعاملك[1] كلٌّ من عاملتَه بمودّة، أو أخْذ أو إعطاء، وهو على ثقةٍ من بَصَرك بمواضع الإنصاف[2]، وعلمك بموارد الأمور.

واعلم أنّ أثرتَك على غير النصيحة والشّفقة، والحَرمة والكِفاية، يوجب [لك[3]] المباعدةَ وقلّةَ الثقة ممن آثرته أو آثرتَ عليه.

فاعرف لأهل البلاء - ممّن جرت بينك وبينه مودّةٌ أو حرمة، ممن فوقَك أو دونك أو نظرائك - أقدارَهم ومنازلهم. ثمّ لتكنْ أمورُك معهم على قدر البلاء والاستحقاق، ولا تؤثر في ذلك أحداً لهوًى[4]؛ فإنّ الأثَرة على الهوى توجب السُّخطة، وتُوجب استصغار عظيمِ النِّعمة، ويُحقّق بها الإقلال، وتَفسد عليها[5] الطائفتان: مَن آثرتَ ومن آثرت عليه.

أما من آثرت[6] فإنّه يعلم أنّك لم تؤثره باستحقاق بل لهوًى، فهو

(١) في الأصل: «ويعاملك» والوجه من د.

(٢) د: «بمواقع الإنصاف».

(٣) الكلمة من د.

(٤) د: «بهوى».

(٥) في الأصل: «بها» وأثبت ما في د.

(٦) د: «آثره» في هذا الموضع وسابقه.

مترقّبٌ أن ينتقل هواك إلى غيره ، فتحول أثرتك حيث مال هواك . فهو مدخولُ القَلْب فى مودّتك ، غير آمنٍ لتغيُّرك .

وأمّا من آثرتَ عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلتَ له السبيلَ إلى الطّعن عليك ، وأعطيته الحُجّة على نفسك . فكلُّ من يعمل على غير ثقةٍ ٤٥ ظ عاد ما أراد به النّفعَ ضرراً ، والإصلاح إفساداً .

وربّما آثَر الرجلُ المرءَ من إخوانه بالعطية السنيّة على بلاء أبلاه[1] ، فيعظمُ قدرُها[2] عنده حتّى لعلّه تطيبُ نفسه ببذل مالِه ودمِه دونه[3] . فإنْ أعطى من أبلى كبلائه وكانت له مثل دالّته[4] ، أكثرَ ممّا أعطاه ، انتقل كلُّ محمودٍ من ذلك مذموماً ، وكل مستحسَنٍ مستقبحاً . وكذلك الأمر فى العقوبة ، يجريان مجرى واحداً .

فاجعل العدلَ والنّصفة فى الثّواب والعقاب حاكماً بينك وبين إخْوانك ، فمن قدّمت منهم فقدّمْه على الاستحقاق ، وبصحة النّية فى مودته ، وحلوص نصيحته لك ممّا قد بلوتَ من أخلاقه وشيمه[5] ، وعلمتَ بتجربتك له ، أنّه يعلم أنّ صلاحَه موصولٌ بصلاحك ، وعطبَه كائن مع عطبك ، فوّض

---

(١) التكملة من د .

(٢) فى الأصل : « بلا بلاء أبلاه » ، والوجه من د .

(٣) فى الأصل . « قدرها » ، صوابه من د .

(٤) د : « ونفسه دونه »

(٥) فى الأصل : « دلالته » ، صوابه فى د

(٦) فى الأصل : « ممن قد بلوت فى أخلاقه وشيمه » ، والوجه من د .

الأمرَ إليه ، وأشركْه فى خواصّ أمورك وخفىّ أسرارك ، ثمّ اعرفْ له قدره فى مجلسك ومُحاورتك[١] ومعاملتك ، فى كلّ حالاتك ومزاولاتك فى حلواتك معه[٢] ، وبحضرة جُلسائك ؛ فإنّ ذلك زيادة فى بيته ، وداعية[٣] لمَنْ دونه إلى التقرّب إليك بمثل نصيحته .

فإن ابتُليتَ فى بعض الأوقات بمن يَقْرُب بحرمة[٤] ويمتّ بدالّة ، يطلب المكافأةَ بأكثر ممّا يستوجب ، فدعاك الكرمُ والحياء إلى تفضيله على من [هو[٥]] أحقّ منه ، إمّا تخوّفًا من لسانه[٦] ، أو مداراةً لغيره ، فلا تَدَعِ الاعتذارَ إلى من فوقَه من أهل البلاء والنّصيحة وإظهارَ ما أردت من ذلك لهم ؛ فإنّ أهلَ خاصّتك والمؤتمنين على أسرارك ، هم شركاؤك فى العيش ، فلا تَستهينَنّ بشىء من أمورهم ؛ فإنّ الرجلَ قد يترك الشىءَ من ذلك اتّكالاً على حسن رأى أخيه[٧] ، فلا يزال ذلك يجرح فى القلب ويسو ، حتّى يولّد ضِغْنًا ويَحُولَ عداوة .

فتحفّظْ من هذا الباب ، واحملْ إخوانك عليه بجهدك .

---

(١) د : « ومحادثتك » .

(٢) فى الأصل : « ومراولتك » . والكلام بعد « معاملتك » إلى هنا ساقط من د .

(٣) د : « فإن ذلك زائد فى بيته وداع » .

(٤) د : « يتقرب بحرمة » .

(٥) التكملة من د

(٦) د : « تخوفا » بدل « خوفاً »

(٧) فى الأصل : « أموراً لا على رأى أخيه » ، صوابه فى د

وستعدّ في من يتّصل بك من بغايه إفراط الحِرص وحَمِيّا الشَّره ، ولِينُ جانبك له ، على أن يَتِمّ العافية ، ويطلُب اللّحوق بمنازلِ مَن ليس هو مثلَه[1] ، ولا له مثلُ دالّته ، فتَلْقاه لما تصنع به مستقِلاً ، ولمعروفك مُستصغِراً . وصلاح من كانت هذه حالُه بخلافِ ما فَسَد عليه أمرُه . فاعرفْ طرائقهم وشِيَمهم ، وداوِ كلَّ مَن لا بدَّ لك من معاشرته بالدواء الذي هو أنجعُ فيه ، إنْ ليناً فليناً ، وإنْ شدّةً فشدّة ؛ فقد قيل في المثل : ٤٦ و

من لا يؤدّبه الجـ ـلُ فقي عقوبته صلاحه

وقد قال بعضُ الحكماء :

« ليس بحكيمٍ من لم يعاشرْ من لا يَجِد من معاشرته بُدًّا[2] ، بالعدل والنَّصفة ، حتّى يجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا[3] » .

فاحفظْ هذه الأبوابَ التي يُوجب بعضها بعضًا ، وقد ضمِنتُ لك أوائلها كونَ أواخرها . فاعرفْها واتّبعْها ، واعلم أنّه متى كان الأوّلُ منها وجبَ ما بعده لا بدَّ منه . فاحذر المقدّمات اللاتي يعقبها المكروه[4] ، واحرِص على توطيد الأمور التي على أثَرها السّلامة ، وألقِحْ في الندىّ الأمورَ التي نِتاجُها العافية[5] .

---

(١) د : « ويطلب اللحاق بمنازل من ليس مثله » .

(٢) د : « من لم يعاشر من لا بد من معاشرته » .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « حتى يجعل الله له فرجاً » فقط

(٤) د : « التي »

(٥) الندىّ : الأول . في الأصل : « والفتح في يدى » صوابه في د وفي د : « أموراً نتاجها العافية » وفي الأصل : « ونتاجها » .

فمن الأمور التي يُوجب بعضها بعضًا : المنعمة توجب المحبّة ، والمضرّة توجب البغضاء[١] ، والمصادّة توجب العداوة ، وخلاف الهوى يُوجب الاستثقال ، ومتابعته توجب الألفة ، والصِّدقُ يوجب الثِّقة ، والكذب يُورث التُّهمة[٢] ، والأمانة توجب الطُّمأنينة ، والعدل يوجب اجتماع القلوب ، والجور يوجب الفُرقة ، وحسن الخلق يُوجب المودَّة ، وسوء الخلق يوجب المباعدة[٣] ، والانبساط يوجب المؤانسة ، والانقباض يوجب الوحشة ، والتكبُّر[٤] يوجب المقت ، والتواضع يوجب المِقَة ، والجود بالقصد يوجب الحمد[٥] ، والبخل يوجب المذمّة ، والتواني يوجب التَّضييع ، والجدّ يوجب رخاء الأعمال ، والهُوَينا تورث الحسْرة ، والحزم يورث السُّرور ، والتَّفريط يُوجب النَّدامة ، والحذر يوجب الغِبْطة ، [وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة[٦]]
والاستهانة توجب التَّباغي ، والتَّباغي مقدّمة الشرّ[٧] وسببُ البَوَار . ٤٦ ظ

ولكلّ شيء من هذا إفراط وتقصير[٨] ، وإنّما تَصِحُّ نتائجها إذا أُقيمت على حدودها ، وقدر ما يدخل من الخلل فيها يدخُل فيما يتولّد منها ، لا بدَّ منه

---

(١) د : « لبغضة » .

(٢) في الأصل : « التهمة » ، صوابه في د .

(٣) د : « التباعد » .

(٤) د : « والكبر » .

(٥) د : « والجود والفضل يوجبان الحمد » ولا يتساوق هذا مع سائر الأسلوب.

(٦) التكملة من د .

(٧) د : « مقدمات الشر »

(٨) هذا ما يعبر عنه الأخلاقيون بمذهب الوسط .

ولا تزحل عنه ، عليه عادةُ الخلق ، وبه جرَتْ طباعهم ، وتمام النعمة بها إصابةُ مواضعها :

فالإفراط فى الجود يوجب التَّبذير ، والإفراط فى التواضع يوجب المذلَّة[1] ، والإفراط فى الكبر يدعو إلى مقت الخاصَّة[2] ، والإفراط فى المؤانسة يدعو حاطاء السُّوء[3] ، والإفراط فى الانقباض يوحش ذا النَّصيحة . وآفة الأمانة اتِّهام الخَانة[4] ، وآفة الصِّدق تصديق الكَذَبة ، والإفراط فى الحذر يدعو إلى ألاَّ يُوثَق بأحد ؛ وذلك ما لا سبيل إليه . [والإفراط فى المضرَّة متبعثٌ على حربك[5]] ، والإفراط فى جرِّ المنفعة عَناء لمن أفرطتَ فى نَفعه عَنك .

واحذرْ كل الحذر أن يخدعَك الشيطانُ عن الحزْم[6] فيسُلَّ لك التَّوانىَ فى صورة التوكُّل ، ويسلبَك الحذر ، ويُورِثَك الهوَينا بإحالتك على الأقدار ؛ فإنَّ الله إنَّما أمر بالتوكُّل عند انقطاع الحِيَل ، والتسليم للقضاء بعد الإعذار ، بذلك أنزلَ كتابَه ، وأمْضَى سُنَّته فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ[7] ﴾ ،

---

(١) فى الأصل : « يورث المذلة » ، وأثبت ما فى د .

(٢) فى الأصل : « يدعو العقب الخاصة » ، صوابه فى د

(٣) بعده فى الأصل : « والإفراط فى الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد » ، وهو تكرار لما سيأتى مما اتفقت عليه النسختان .

(٤) الخانة : جمع خائن ، وفى اللسان : « والجمع خانة وخونة ، الأخيرة شاذة » . ونظير هذه الأخيرة فى الشذوذ حائك وحوكة .

(٥) التكملة من د .

(٦) هذا ما فى د وفى الأصل : « الحرص » .

(٧) الآية ٧١ من سورة النساء .

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ[١] ﴾ . وقولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم : « اعْقِلْها وَتَوَكَّلْ[٢] » . وسُئل ما الحَزْم ؟ فقال : الحَذَر[٣] .

فتحفَّظ من هذا الباب وأحكِمْ معرفتَه إن شاء الله تعالى .

واعلمْ أنَّ أكثر الأمور إنَّما هو على العادة وما تَضْرَى عليه النُّفوس ، ولذلك قالت الحكماء : « العادةُ أملَكُ بالأدب »

فَرِّضْ نفسَك على كلِّ أمرٍ محمود العاقبة ، وضَرِّها بكلِّ ما لا يُذَمّ من الأخلاق[٤] يَصِرْ ذلك طِباعًا[٥] ، وينسب إليك منه أكثرُ مما أنت عليه .

واعلم أنّ الذي يُوجب لك اسمَ الجود القيامُ بواجب الحقوق عند النوائب ، مع بَعْثِ التَّفَضُّل على الراغبين . وإذا أُوجِبَ[٦] لك اسمُ الجود زالَ عنك اسمُ البخل .

٤٧ و واعلم أنَّ تدبير المال آلةٌ للمكارم ، وعونٌ على الدِّين ، ومُتَأَلِّفٌ للإخوان ؛ وأنَّ مَن قد فَقَدَ المالَ قلَّت الرغبة إليه ، والرَّهبة منه ؛ ومَن لم يكنْ بموضعِ رغبةٍ ولا رهبة استهانَ النَّاسُ بقدره[٧] .

---

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٢) رواه الترمذي عن أنس ، وهو حديث ضعيف ، الجامع الصغير ١١٩١ . ورواه الطبراني : « قيدها وتوكل » أبي الطالب لمحمد بن درويش البيروتي ص ٤٤ .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « قال الحذر » .

(٤) في الأصل : « الإخلاص » صوابه في د والتضرية : التعويد ، والضراوة : العادة .

(٥) الطباع : الطبع والجبلة وانظر ما سبق في حواشي ١٠٤ د . طبعا » .

(٦) د : « وجب » .

(٧) هذا ما في د . وفي الأصل : « به » .

فاجهد الجهد كله ألا تزال القوت معلقة منك برغبة أو رهبة ، فى دين أو دنيا .

واعلم أنّ السَّرَف لا بقاء معه لكثير ، ولا تبرّ معه لقليل ، ولا تصلح عليه دنيا ولا دين . وتأدّبْ بما أدّبَ الله تعالى به نبيّه[1] فقال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوما محسورا[2] ﴾ .

وقالت الحكماء : « القصد أبقى للجمام[3] » .

فدوامُ حالك وبقاء النعمة عليك ، بتقديرك أمورك على قدْر الزمان ، وبقدر الإمكان : فقد قال الشاعر[4] :

مَن سابقَ الدهرَ كبا كَوهُ ! يَشْقِها من حُطَى الدهر

فاخطُ مع الدهر على ماحطا واجرِ مع الدهر كما يجرى[5]

واعلم أنّ الصمت فى موضعه ربّما كان أنفعَ من الإبلاغ بالمنطق فى موضعه . وعند إصابة فرصته . وذاك صَمْتك عند من يعلم أنّك لم تصمت عنه عِيًّا[6] ولا رَهبة . فليزِدْكَ فى الصمت رغبةً ماترى من كثرة مضارّ المتكلّمين فى غير الفرص ، وهَذَرِ مَن أطلق لسانَه بغير حاجة .

---

(١) فى الأصل : « وتأديب الله به ما أدب به نبيه صلى الله عليه وسلم » ، صوابه فى د

(٢) الآية ٢٩ من سورة الإسراء .

(٣) الجمام . كسحاب : الراحة .

(٤) هو أبو العتاهية . كما فى البيان ٤ : ٢١ وملحقات ديوانه ٩٨ نقلا عن الأغانى ٣ : ١٦٤ .

(٥) فى الأصل والبيان : « إذا ما حطاه » . وأثبت ما فى د وبعض أصول البيان .

(٦) العى : العجز . وفى الأصل : « عياء » ، صوابه فى د .

واعلمْ أنّ الجبن حبانٌ ، والشّجاعة شجاعتان. وليست تكون الشجاعة إلاّ فى كلّ أمر لا يُدرَى ماعاقبته ، يُخاطَر فيه بالأنفس والأموال. فإذا أردتَ الحزمَ فى ذلك فلا تشجّعنّ نفسَك على أمرٍ أبدًا إلاّ والذى ترجو من نفعه فى العاقبة أعظمُ ممّا تبذل فيه فى المستقبل ، ثم يكون رجاؤك فى ذلك أغلبَ عليك من الخوف .

وها هنا موضعٌ يحتاج فيه إلى النظر : فإن كان ذلك أمرًا واجبًا فى ٤٧ ظ
الدّين ، أو خوفًا لعارٍ تَسِمُ به الأعقابُ فأنت معذورٌ بالمخاطرة فيه بنفسك ومالك . وإن كان أمرًا تعظُم منفعتُه فى الدنيا[1] إلاّ أنّك لا تناله إلاّ بإخطار بمهجة نفسك[2] أو بتعريض كلّ مالك للتّلف ، فالإقدام على مثل هذا ليس بشجاعة ، ولكنْ حماقة بيّنةٌ عند الحكماء .

وقد قالت علماء أوائل الناس[3] :

* لا يرسل السّاقَ إلاّ ممسكًا ساقا[4] *

---

(١) فى الأصل : « للدنيا » ، وأثبت ما فى د

(٢) الخطار : المخاطرة ، وهو أن يشفى بنفسه على خطر الهلاك . وفى الأصل : « بالإخطار » والوجه ما أثبت من د وفى د : « باخطار بنفسك » .

(٣) د : « علماء الأوائل » فقط .

(٤) فى الأصل : « تمسك » صوابه فى د وهو عجز بيت لأبى دواد الإيادى . من أبيات رواها العسكرى فى الجمهرة ٢١٢ وانظر اللسان (حرب ، سوق) وعيون الأخبار ٣ . ١٩٢ وأمثال الميدانى ١ . ٢٠٢ وديوان المعانى ١ : ٢٣٨ والمخصص ٨ : ١٠٣ . وصدره :

* أنى أبيح له حربًا نشبة *

وقالوا : « لا تخرج الأمرَ كلَّه من يدك وخذْ بأحد جانبيه[1] » .

ثم الشجاعة والجبن فى ذلك بقدر الحالات والأوقات .

واعلمْ أنَّ أصلَ ما أنت مستظهر به على عدوِّك ثلاثُ خلال :

أشرفها : أن تأخذ عليه بالفَضْل وتبتدئَه بالحسنى ، فتكون عليه رحمةً ولنفسك ناظرا ؛ فإنَّ كثرة الأعداء تنغيصٌ للسُّرور ، وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ادفَعْ بالتى هِىَ أحسَنُ فإذا الذى بَينَك وبينه عَداوةٌ كأنَّه ولىٌّ حميم[2] ﴾ .

فإن كان عدوُّك مما لا يصلح على ذلك فحصِّن عنه أسرارك ، وعَمِّ عليه آثار تدبيرك[3] ، ولا يطَّلعنَّ على شىء من مكايدتك له[4] بقول ولا فعل ، فيأخذَ حِذرَه ، ويعرفَ مواضعَ عَوَارك ، فإنَّ تحصينَ الأسرار أخذٌ بأزمَّة التدبير ، والإكثارَ من الوعيد للأعداء فشَل[5] . ولكنْ داجِ عدوَّك ما داجاكَ ، وأحصِ معايبَه ما لاحاك .

وقال الشاعر[6] :

كلٌّ يداجِى على البغضاء صاحبه ... رَكِنْتَ منهم على مِثل الذى رَكِنُوا[7]

---

(١) د : « جوابه » .

(٢) الآية ٣٤ من فصلت .

(٣) د : « وعم عليه تدبيرك » .

(٤) د : « مكايدك » .

(٥) هذا ما فى د . وفى الأصل : « وإكثار الوعيد للأعداء فشل » .

(٦) هو قعنب بن أم صاحب ، كما فى اللسان (ركن) . وانظر أبياتاً من قصيدة البيت فى الحماسة (باب الهجاء) بشرح التبريزى

(٧) ركن بمعنى علم . وعداه على لأن فيه معنى اطلعت .

واعلم أنّ أعظم أعوانك عليه الحجج إلى ثم الفرصة[1] ، ثم لا تظهرن عليه حُجّةً ، ولا تهتبلنّ منه غِرّة ، ولا تطلبنّ له عَثْرة ، ولا تهتكنّ له ستراً [إلاّ] عند الفرصة فى ذلك كلّه ، وفى المواضع التى يجب لك فيها العُذْر ويعظم فيها ضررُه ، إن كان العفو عنه شرّاً له .

وإن كان ممن يُظهِر لك العداوةَ ويكشف لك قِناع المحاربة ، وكان ممن أعياكَ استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن فى أمره بين حالين[2] : استبطانِ الحذَر منه ، والاستمداد له وإظهار الاستهانة [به[3]] . ولستَ مستظهراً عليه ٤٨ و
بمثل طهارتك من الأدناس ، وبراءتك من المعايب .

فلتكن هذه سيرتَك فى أعدائك .

واعلم أنّ إشاعةَ الأسرار فسادٌ فى كلّ وجهٍ من الوجوه ، من العدوّ والصديق[4] . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على الحوائج بسَتْرها ؛ فإنّ كلّ ذى نعمة محسود[5] » .

وإذا أفشيتَ سِرّك فجاءتِ الأمورُ على غير ما تقدّر كان ذلك منك فصلاً من قولك على فعلك[6] . وقد قيل فى الأمثال : « من أفشى سِرّهُ كثُر المتآمرون

---

(١) التكملة من م .

(٢) د : « حالين » .

(٣) التكملة من د

(٤) هذا ما فى د . وفى الأصل : « والعدو والصديق » .

(٥) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٩٨٥ وذكر أنه حديث ضعيف .

(٦) الكلام من أول الفقرة إلى هنا ساقط من د .

عليه » . فلا تضَعْ سرَّك إلاّ عند من يضرُّه نشره كما يضرُّك ، وينفعه ستره بحسب ما ينفعك[1] .

واعلم أنّك ستصحب من الناس أجناساً متفاوتةً حالاتُهم ، متفاوتةً منازلُهم ، وكلُّهم لك إليه حاجة ، وكلُّ طائفة تَسُدُّ عنك كثيراً من المنافع لا يقوم به من فوقها ، ولعلَّهم مجتمعون على نصيحتك والشَّفقة عليك . فمنهم من تُريد منه الرأى والمشورة ، [ومنهم مَن تريده للحفظ والأمانة[2]] ، ومنهم من تريده للشدّة والغلظة ، ومنهم من تريده للمهنة . وكلٌّ يسُدُّ مسَدَّه على حياله . وقد قيل فى الحكمة : « إنّ الخلال تنفع حيث لا ينفع السَّيف » .

ولا تُخلينَّ أحداً منهم ـ عظُم قدره أو صَغرت منزلته ـ من عنايتك وتعهُّدك بالجزاء على الحسنة ، والمعاتبة عند العثْرة ؛ ليعلموا أنّهم منك بمرأى ومسمع . ثمّ لا تحوزَنَّ بأحدٍ منهم حَدَّه . ولا تدخلْه فيما لا يصلُح له ، تستصْلِحْ لك حالَه ، ويتَّسِقْ لك أمرُه[3] .

واعلم أنّه سيمرُّ بك فى معاملاتِ الناس حالاتٌ تحتاج فيها إلى مداراةِ أصنافِ الناس وطبقاتهم ، يَبلُغ بك غايةَ الفضيلة فيها . وكمالَ العقل والأدب منها ، أنْ تُسالِم أهلَها وتملكَ نفسَك عن هواها ، وتكُفَّ من جماحها[4] ، بالأمر الذى لا يُخرِجك فى دينك[5] ولا عِرضك ولا بدنك ، بل يفيدك عزَّ الحلم ، وهيبة الوقار . وهى أمور مختلفة ، تحسُنها حالٌ واحدة . ٤٨ ظ

---

(١) فى الأصل : « وينفعه نشره » ، صوابه فى د . (٢) التكملة من د .
(٣) يتسق : ينتظم . وفى الأصل : « ويتفق » ، وأثبت ما فى د .
(٤) فى النسختين : « عن جماحها » .
(٥) فى الأصل : « بأمر لايخرجك فى دينك » . صوابه فى د .

منها : أن تأتيَ محفلاً فيه جمعٌ من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذى تستحقّه حتى يكون أهلُه [الدين[1]] يرفعونك ، فتظهر جلالتُك وعِظَمُ قدرك .

ومنها : أن يُفيض القومُ فى حديثٍ ، عندَك منه مثلُ ما عندهم أو أفضلُ ، فيتنافسون فى إظهار ما عندهم ، فإنْ نافستَهم كنتَ واحداً منهم ، وإن أمسكت اقتصَّوْك ذلك ، فصرتَ كأنّك ممتنٌّ عليهم بحديثك ، وأنصتُوا لك ما لم ينصِتوا لغيرك .

ومنها : أن يتمارى جُلساؤك ـ والمِراء نِتاجُ اللَّجاجة وثَمرةُ أصلها الحميَّة ـ فإنْ ضبطتَ نفسك كان تحاكُمهم إليك ، ومعوّلهم عليك .

واعلمْ أنّ طبع النُّفوس ـ إذْ كان على حسبِ العلوّ والمَلَكة ـ أنّ فى تركيبها بُغضَ من استطالَ عليها . فاستدرِع محنةَ العامّة بالتّواضع ، ومودّةَ الأخِلاّء بالمؤانسة والاستشارة ، والثّقةِ والطُّمأنينة .

واعلم أنّ الذى تعامِل به صديقَك هو ضدُّ ما تعامل به عدوّك . فالصّديقُ وجهُ معاملتِه السالمة ، والعدوُّ وجهُ معاملته المداراة[2] والموارَبة . هما ضدّانِ يتنافيان ، يُفسد هذا ما أصلح هذا[3] ، وكلّما نقصت من أحدِ البابَين زاد فى صاحبه ، إنْ قليلٌ فقليلٌ ، وإنْ كثيرٌ فكثيرٌ[4] .

---

(١) التكملة من د .

(٢) د : « المداراة والمسالمة » ، وكلمة « والمسالمة » مقحمة

(٣) د : « صلاح هذا ما أفسدها »

(٤) د « إن قليلا فقليل وإن كثيراً فكثير »

فلا تَسلمْ بالمواربة صَداقةً ، ولا تَطمَعْ بالعدوّ مع الاستسلام إليه . فضَعِ الثِّقةَ موضعَها ، وأقِمِ الحذرَ مُقامَه[1] ، وأسرِعْ إلى التفهُّمَ بالثِّقة ، ولا تبادرْ إلى التَّصديق ، ولا سيَّما بالمحالِ من الأمور .

واعلمْ أنّ كلّ علم بغائب ، كائناً ما كان ، إنَّما يُصاب من وجوهٍ ثلاثة لا رابعَ لها ، ولا سبيلَ لك ولا لغيرك إلى غاية الإحاطات ؛ لاستئثار الله بها . ولن تَهْنأ بعيش مع شدَّة التحرُّز ، ولن يتّسِق لك أمرٌ مع التضييع[2] . فاعرفْ أقدارَ ذلك .

فما غابَ عنك مما قد رآه غيرُك ممَّن يُدرِكُك بالعِيان ، فسبيلُ العلم به الأخبارُ المتواترة ، التي يحملُها الوليُّ والعدوّ ، والصَّالح والطَّالح ، المستفيضةُ في الناس ، فتلك لا كُلفةَ على سامعها من العلم بتصديقها . فهذا الوجهُ يستوي فيه ٤٩ و
العالمُ والجاهل .

وقد يجيء خبرٌ أخصُّ من هذا[3] إلاَّ أنّه لا يُعرف إلاَّ بالسُّؤال عنه ، والمفاجأة لأهله ، كقوم نَقَلوا خبَرًا ، ومثلُك يحيط علمُه[4] أنَّ مثلَهم في تفاوت أحوالهم ، وتباعُدِهم من التَّعارف ، لا يُمكن[5] في مثلِه التَّواطؤ وإنْ جَهِل ذلك أكثرُ الناس . وفي مثل هذا الخبر يمتنع الكذبُ[6] ، ولا يتهيَّأ الاتفاق فيه على الباطل .

---

(١) د : « مكانه » .
(٢) في الأصل : « ولن يتفق » ، ووجهه من د .
(٣) في الأصل : « أصح من هذا » ، صوابه في د .
(٤) د . « وعلمك محيط » ، فقط .
(٥) د . « لا يكون » .
(٦) د : « يشبع الكذب » .

وقد يجيء خبرٌ أحسنَ من هذا ، يحمله الرجلُ والرجلانِ ممن يجوز أن يَصدُقَ ويجوز أن يكذب ، فصِدْق هذا الخبرِ فى قلبك إنّما هو بحُسن الظنّ بالمخبر ، والثّقة بعدالته . ولن يقومَ هذا [الخبر[1]] من قلبك ولا قلب غيرك مقام الخبرين الأوّلين [أبداً[1]] . ولو كان ذلك كذلك بطل التصنُّع بالدِّين[2] واستوى الظاهر والباطن من العالَمين .

ولما أنْ كان موجوداً فى المقول أنّه قد يفتّش بعضُ الأمناء عن خيانة[3] ، وبعضُ الصّادقين عن كذبٍ ، وأنّ مِثل[4] الخبرين الأوّلَين لم يتعقّب الناس فى مثلهما كذِباً قطُّ ، عُلِم أنّ الخبرَ إذا جاء مِن مِثلِهما جاء محيء اليقين ، وأنّ ما عُلِم من خبر الواحدِ فإنّما هو بحُسْن الظنّ والائتمان[5] .

فهذه[6] الأخبار عن الأمور التى تدركها الأبصار .

فأمّا العلم بما غابَ عمّا لا يُدرِكه أحدٌ بعِيان ، مثلُ سرائر القلوب

---

(١) التكملة من د

(٢) أى والتصنع بالدين كائن لا محالة بين طائفة من الناس ، لا يخلو منه عصر والتصنع : تكلف حسن السمت وإظهاره والتزين به والباطل مدخول اللسان : (صنع ٧٩) .

(٣) أى تظهر خيانتهم بعد تفتيشهم .

(٤) فى الأصل : « أو مثل » ، صوابه من د

(٥) د : « فإذا علم »

(٦) فى الأصل : « بهذه » ، وفى د : « هذه » وصواب الأول ووجه الثانى ما أثبت .

وما أشبهها ، فإنّما يُدرَك علمُها بآثار أفاعيلها وبالنائل[1] من أمورها ، على غير إحاطةٍ كإحاطة الله بها .

وأوّلُ العليم بكلّ غائبِ الظُّنونُ ، والظُّنونُ إنّما تقع فى القلوب بالدّلائل ، فكلّما زاد الدليل قَوِىَ الظنُّ حتّى ينتهىَ إلى غاية تزول معها الشكوكُ عن القلوب : وذلك لكثرة الدلائل ، [ولترادفها .

وهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة[2]] .

فمن عرف ما طُبع عليه الخَلْق وجَرت به عاداتهم ، وعرفَ أسبابَ التصالم والتصاله بهم ، وتقصّى عِللَ ذلك ، كان حليقًا — إنْ لم يُحطْ بعلم ما فى قلوبهم — أن يقعَ من الإحاطة قريباً .

واعلمْ أن المقادير ربّما جرت بخلاف ما تقدّر الحكماء ، فنال [بها[3]] الجاهلُ فى نفسه ، المخلطُ فى تدبيره ، ما لا ينال الحازمُ الأريب الحذِر . فلا يدعونّك ما ترى من ذلك إلى التّضييع والاتّكال على مثل تلك الحال : فإنّ الحكماء قد أجمعت أنّ مَن أخَذَ بالحزم وقدّمَ الحذر ، فجاءت المقاديرُ بخلاف ما قدّر ، كان عندهم أحمدَ رأياً وأوجبَ عذراً ، ممّن عمل بالتفريط وإن اتّفقت له الأمور على ما أراد .

---

(١) فى الأصل : « وبالغائب » ، صوابه فى د .

(٢) التكملة من د والكلام بعده إلى « والله يوفقك » فى ص ١٢٣ انتقل فى الأصل إلى ما يلى « والمراطبة عليه » فى ظهر الورقة ٥١ من الأصل . وقد أحريت ترتيب العبارة من د

(٣) التكملة من د

ولعمرى ما يكاد ذلك يجيء إلاّ فى أقلّ الأمور ، [وما كثُر مجيء السلامات إلاّ لمن أتى الأمور[١]] من وجوهها وإنما الأشياء بعواقبها[٢]. فلا تكونن لشيء ممّا فى يدك أشدَّ ضِنًّا ، ولا عليه أشدّ حَدَبًا ، منك بالأخ الذى قد بلوتَه فى السرّاء والضرّاء ، [عرفت مذاهبه[٣]] وخَبَرتَ شِيَمه ، وصحّ لك غَيْبه ، وسلمت لك ناحيتُه ؛ فإنما هو شقيقُ روحك[٤] وباب الرَّوح إلى حياتك ، ومُستَنَدُ رأيك وتوأم عَقْلك[٥] . ولست منتفعاً بعيش مع الوحدة . ولا بدّ من المؤانسة ، وكثرةُ الاستدلال تهجم بصاحبه على المكروه . فإذا صفا لك أخٌ فكن به أشد ضنًّا منك بنفائس أموالك ، ثمّ لا يزهدنّك فيه أنْ ترى منه خُلُقاً أو خُلُقين تكرههما ؛ فإنّ نفسك التى هى أخصُّ النفوس بك لا تُطيعك المَقادةَ فى كلّ ما تريد ، فكيف بنَفْسِ غيرك !

ويحسُنُ بك أن يكون لك من أخيك أكثرُه ، وقد قالت الحكماء : « مَن لكَ بأخيك كلّه[٦] » ، و « أىُّ الرِّجال المهذَّب[٧] » .

ثم لا يمنعك ذلك من الاستكثار من الأصدقاء[٨] فإنهم عند مُفَدُّون

---

(١) التكملة من د

(٢) يعنى أن العبرة فى الأحكام بالأعم الغالب

(٣) التكملة من د

(٤) د : « شق روحك » . ٥ د : « ويوم غفلتك » ، تحريف .

(٦) لأكثم بن صيفى . العمرين ١٢

(٧) من قول التابعة الذبيانى فى ديوانه ١٤ :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

(٨) د : « الصديق »

[لك[1]] ينشرون محاسنك ، ويحاجُّون عنك . ولا يحملنك استطراف صديق ثانٍ[2] على ملالةٍ للصَّديق الأول : فإن ذلك سبيلُ أهل الجهالة ، مع ما فيها من الدناءة وسوء التدبير ، وزهد الأصدقاء[3] جميعاً فى إحائك والله يوفقك[4] .

وستجد فى الناس من قد جرّبته الرِّجالُ قَبلَك ، ومحَّضه اختبارهم لك . فمن كان معروفاً بالوفاء فى أوقات الشِّدّة وحالات الضرورة ، فنافِسْ فيه واسبقْ إليه ؛ فإنّ اعتقاده أنفَسُ المُقتَدِ[5] . ومن بلاهُ غيرك فكشف عن ٤٩ ظ كُفر النِّعمة ، والغَدْر عند الشِّدة ، فقد حذَّرك نفسَه وإنْ آنسك[6] وكما غدر بغيرك يَغدِر بك ؛ فإنّ مَن شيمته الوفاء بقى للصَّديق والعدوّ ، ومَن طبيعته الغَدرُ لا بقى لأحد[7] ، وإنما يميل مع الرُّجحان : يذلُّ عند الحاجة[8] ويشمخ مع الاستغناء .

فاحذر ذلك أشدَّ الحذر . واعلم أنّ الحكماء لم تذم شيئاً ذمَّها أربعَ خلال :

---

(١) التكملة من د .

(٢) فى الأصل : « الصديق » فقط ، صوابه من د .

(٣) فى الأصل : « الصديقين » ، وأثبت ما فى د .

(٤) د : « موفقك »

(٥) أراد أنفس مايقتنى وأصل المقتد الصيغة يقتنيها الرجل .

(٦) فى الأصل : « وأسلك » وأثبت ما فى د .

(٧) فى الأصل : « لا يدوم » ، وأثبت ما فى د .

(٨) د : « فى وقت الحاجة » مع إسقاط كلمة « يذل » .

الكذبُ فإنه جِماعُ كلِّ شرٍّ . وقد قالوا : لم يكذب أحدٌ قطُّ إلاّ لصغرِ قَدْرِ نفسِه عندَه .

والغَضَبُ فإنه لؤمٌ وسوء مقدِرة ؛ وذاك أنَّ الغضبَ ثمرةُ خلافِ ما تهوى النفس[1] ، فإنْ جاء الإنسانَ خلافُ ما يهوى ممَّن فوقه أغضى وسَتَى ذلك خُزْناً ، وإن جاءه ذلك ممَّن دونَه حمله لؤمُ النفس وسوء الطِّباع على الاستطالة بالغَضَب ، والقدرة والبسطة على البطش[2] .

والجزعُ عند المصيبة التي لا ارتجاعَ لها ؛ فإنهم لم يجعلوا لصاحب الجزع في مثل هذا عُذراً ، لما يتعجّل من غمِّ الجزع مع عدم فَوت المجزوع عليه . وزعموا أن ذلك من إفراط الشَّرَه . وأنَّ أصل الشَّرَه والحسد واحدٌ وإن افترقَ فرعاهما .

وذمّوا الحسدَ كذمِّهم الجزعَ ، لما يتعجّل صاحبُه من ثقل الاغتمام ، وكُلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يجدىَ عليه شيئاً[3] . فالحسد اغتمام ، والغَدْر لؤم . وقال بعض الحكماء : « الحسد حلقٌ دنيء ، ومن دناءته أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب » . وزعموا أنه لم يَغدِر غادرٌ قطُّ إلاّ لصغر همّته عن الوفاء ، وخمول قَدْره عن احتمال المكاره في جنب نَيل المكارم .

---

(١) د . « النفوس » .

(٢) في الأصل : « والقدر والبسطة » ، وفي د . « والقدرة بالبطش » ، وصوبت العبارة وأكملتها بما تتلاءم به مع ما قبلها .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « من غير أن يكون عليه في ذلك شيء » ، تحريف .

وبقدر ما ذاقت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة[١] ، فكذلك حمدت أضدادها من الأخلاق ، وأكثرت فى تفضيلها الأقاويل ، وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنها أصلٌ لكل كريم ، وجماعٌ لكل خير ، وأنّ بها تُنال جسامُ الأمور فى الدُّنيا والدين[٢] .

فاجعل هذه الأخلاقَ إمامَك ، ومَثَلاً بين عينيك ، ورُضْ عليها ٥٠ و نفسَك ، وحكِّمها فى أمرك ، تَقُرَّ بالرَّاحة فى العاجل[٣] ، والكرامة فى الآجل .

والصبر صبران : فأعلاهما أن تصبرَ على ما ترجو فيه الضرَّ فى العاقبة . والحِلمُ حلمان : فأشرفُهما حلمُك عمَّن هو دُونَك . والصِّدق صدقان : أعظمهما صدقك فيما يضرُّك . والوفاء وفاءان : أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه . فإنّ مَن عُرف بالصِّدق صار الناس له أتباعا ، ومن نُسب إلى الحلم أُلبِس ثوب الوقار والهيبة وأبهةِ الجلالة ، ومن عرف بالوفاء استنامت بالثِّقة به الجماعات[٤] ومن استعزّ بالصبر[٥] نال جسيمات الأمور .

ولعمرى ما غَلِطت الحكماء حين سمَّتْها أركانَ الدِّين والدُّنيا .

فالصِّدق والوفاء توأمان ، والصَّبر والحلم توأمان[٦] ، ضمن[٧] تمام كلّ

---

(١) فى الأصل : « من هذه الأخلاق الثلاثة » ، والوجه من د

(٢) د : « فى الدين والدنيا » .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « فى العاجل والآجل »

(٤) يقال استنام إليه ، إذا أنس به واطمأن إليه وسكن . فى الأصل : « واستنامت بالثقة به الجماعة » . صوابه فى د . وانظر ص ١٢٩

(٥) د : « استعان بالصبر » .

(٦) يقال هما توأم أيضاً فى الأصل : « توأم » فى الموضعين . وأثبت ما فى د .

(٧) فى الأصل : « فيهن » . وفى د : « منهن » . والوجه ما أثبت .

دين ، وصلاحُ كلِّ دنيا . وأضدادهنَّ سببُ كلِّ فُرقة ، وأصلُ كلِّ فساد .

واحذَرْ خَصلةً رأيت الناس قد استهانُوا بها ، وضيَّعوا النظر فيها ، مع اشتمالها على الفساد ، وقَدْحِها البغضاء فى القلوب ، والعداوةَ بين الأوِدّاء : المفاخرةُ بالأنساب : فإنه لا يغلَط فيها عاقلٌ قطُّ ، مع اجتماع الإنس جميعاً على الصورة[1] وإقرارهم جميعاً بتفرُّق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والدَّمامة ، واللُّؤم والكرم ، والجُبْن والشَّجاعة ، فى كلِّ حين ، وانتقالها من أمةٍ إلى أمة ، ووجودِ كلِّ محمود ومذموم فى أهل كلِّ جنسٍ من الآدميِّين . وهذا غير مدفوع عند الجميع .

فلا تجعلنَّ له من عقلك نصيباً ، ولا من لسانك حَظًّا ، تسلَمْ بذلك على النَّاس أجمعين ، مع السَّلامة فى الدين .

واعلمْ أنَّك موسومٌ بسِمَا من قارنتَ ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ مَن صاحبت . فتحرَّزْ من دُخلاء السَّوء ، ومجالسة أهل الرِّيَب[2] ، وقد حَرَتْ لك فى ذلك الأمثالُ ، وسُطِّرتْ لك فيه الأقاويل ، فقالوا : « المرء حيث يجعلُ نفسَه[3] » ، وقالوا : « يُظَنُّ بالمرء ما ظُنَّ بقرينه » ، وقالوا : « المرء بشكله ، والمرء بأليفه » . ٥٠ ظ

ولن تقدر على التحرُّز من جماعة الناس[4] ، ولكن أقِلَّ المؤانسةَ

---

(١) أى اتفاقهم جميعاً فى الصورة الإنسانية

(٢) د : « وأظهر مجانبة أهل الريب » .

(٣) ومنه قول منقر بن فروة ، أنشده الجاحظ فى البيان ٢ : ١٠٣ و ٣ : ٢٢٨ :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فى صالح الأخلاق نفسك فاجعل

(٤) د : « جماعات الناس » .

إلا بأهل البراءة من كلّ دنَس . واعلم أنّ المرء بقدر ما يَسبِق إليه يُعرَف ، وبالمستقبَح من أفعاله يُوصَف . وإن كان بين ذلك كثيرٌ من أفعاله[1] ألفاه الناس وحكموا عليه بالغالب من أمره .

فاجتَهِدْ أن يكون أغلبُ الأشياء على أفاعيلك كلّ ما تحمده العوام[2] ولا تذمّه الجماعات ، فإنّ ذلك يعمّ على كلّ خالٍ إن كان .

فادرِسْ ألسنةَ الناس فاشغَلْها بمحاسنك ، فإنّهم إلى كلّ شيءٍ سِراع[3] ، واستظهِرْ على مَن دونك بالتفضّل ، [وعلى نظرائك[4]] بالإنصاف ، وعلى مَن فوقك بالإجلال . تأخذْ بوثائق الأمور ، وأرِمّة التدبير .

واعلم أنّ كثرةَ العتاب سببٌ للقطيعة ، واطّراحَه كلّه دليلٌ على قلّة الاكتراث لأمر الصديق[5] . فكن فيه بين أمرين : عاتبًا فيما تشتركان في نفعه وضرّه وذلك في الهَنات[6] ، وتجافَ له عن بعض عَلاته تسلَمْ لك ناحيته . وبحسَبِ ذلك فكن في زيارته ، فإنّ الإلحاح في الزيارة يَذهَب بالبهاء ، وربّما أورثَ الملالةَ ؛ وطولَ الهجران يُعقِب الجفوة ، ويُحِلّ عقدةَ

---

(١) في الأصل : « خلافه » . ووجهه من د .

(٢) في الأصل : « عليك أفاعيلك » صوابه في د . وفي د أيضاً : « ما تحمده العوام » .

(٣) في النسختين : « إلى كل شيء » والوجه ما أثبت وفي م : « إلى كل شر » .

(٤) التكملة من د ، م .

(٥) في الأصل : « الأمن » م وفي د : « بأمر » وهذه الأخيرة صحيحة ، يقال ما اكترث به وما اكترث له ، أي ما بالى به وأثبت الوجه الذي يقتضيه الجمع بينهما .

(٦) د : « الهنات » . وكلاهما متجه .

الإحاء ، ويجعلْ صاحبه مدرجة للقطيعة[١] وقد قال الشاعر[٢] :

إذا ما شئت أن تَسْلَى حبيباً ... فأكثِرْ دونَه عددَ الليالى

فما يُسْلِى حبيبَك مثلُ نأى ... ولا يُبلى جديدَك كابتذال[٣]

[وزر غِبًّا إذا أحببت حِلاًّ ... فتحظى بالودادِ مع اتصال[٤]]

واقتصِدْ فى مِزاحك ؛ فإنَّ الإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجرِّئ عليك أهل الدَّناءة . وإنَّ التقصير فيه يَقبِض عنك المؤانسين . فإن مزحت فلا تمزَحْ بالذى يسوء مُعاشِريك .

وأنا أوصيك بخلقٍ قلَّ من رأيته يتخلَّق به ، وذاك أنَّ تحمِّله شديد ، ومرتقاه صعب ، وبسَبَب ذلك يورث الشَّرف وحميدَ الذِّكر : ألاَّ يُحدِثَ لك انحطاطُ من حَطَّتِ الدُّنيا من إخوانك استهانةً به ، ولا لحقَه إضاعة ، ولما كنتَ تعلم من قَدْرِه استصغاراً ؛ بل إن زرتَه قليلاً كان أشرفَ لك ، وأعطفَ للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاعُ مَن رفعت الدنيا منهم تذلُّلا وإيثاراً له على نظرائه فى الحفظ والإكرام : بل لو انقبضتَ عنه كان مادخل أكثرَ من ذامِّك ، وكان هو أولى بالتعطُّف عليك ، إلاَّ أن يكون ساقط تخافُ شَذَاه ومَعرَّتَه[٥] ، وترجو عنده جرَّ منفعة لصديق ، أو دفعَ مضرَّة

---

(١) هذا ما فى د . وفى الأصل : « درجة للقطيعة » .

(٢) البيتان التاليان من أبيات الحماسة انظر شرح المرزوقى ١٣٠٠ وشروح سقط الزند ١٢٢ ، ٦٥٣ ، ٦٩٠ .

(٣) هذا البيت ساقط من د .

(٤) التكملة من د .

(٥) الشذا : الأذى والشر . د : « شذاته » ؛ والشذاة : الحده والمعرة : الأذى .

عنه ، أو كبتاً لعدوّ وإزالةَ هوايَ به ؛ فإنّ السُّلطان وخيلاءه ورَهوَه يحتمل فيه ما لا يجوز فى غيره ، ويُعذَر فيه ما لا يُعذر فى سواه[1] .

واعلمْ أنّ نشرَ محاسنك لايليق بك ، ولا يُقبل منك[2] ، إلّا إذا كان القولُ لها على ألسُن أهلِ المروءات ، وذَوِى الصِّدق والوفاء ، ومن يَنفع قولُه فى القلوب ممّن يُستمام إلى قوله ، ويُصدَّق خبره ، وممن إنْ قال صدق ، أو مَدحَ اقتصد ، يُذْنِى قدرَ البلاء ، فإنّ إشراف[3] الثّناء على قدر النِّعمة يولِّد فى القلوب التكذيب ، ويدلُّ على طلب التزايد .

فأمّا ثناء المادحين لك فى وجهك ، فإنّما تلك أسواقٌ أقاموها للأرباح ، وساهَلوك فى المبايَعة ، ولم يكن فى الثّناء عليهم كُلفة ، لكساد أقاويلهم عند الناس أولئك الصادُّون عن طرق المكارم ، والمثّبطون عن ابتناء المعالى .

فارتَدْ لنفسك مَغرِسًا تنمو فيه فروعُها ، وتزكو ثمرتُها ، لا تذهبْ نفقتك ضَياعا ، إمّا لعاجلٍ تقدّمه ، أو لآجلٍ ثناء تنتفع به[4] .

ولن تَعدَمَ أنْ يفعالَكَ فى بعض أحوالك حقوقٌ تَبهظك ، وأحوالٌ تفدحك ، وأمورٌ كلُّها تتقسّمُ عنايتَك ، وفى التثبُّت فى مثلها تُعرف فضيلتك ،

---

(١) الكلام بعده إلى كلمة « تنتفع به » فى س ١٢ ساقط من د .

(٢) فى الأصل : « فيك » .

(٣) الإشراف : العلو ، يقال أشرف عليه ، أى علا . والمراد الزيادة وفى الأصل : « إسراف » .

(٤) انظر ماسبق فى التنبيه الأول

فلا تستقلها بالتضجّع وتعتير الرأى[1] ، وابدأ منها بأعظمها منفعة ، وأشدّها خوفَ ضرر . وكلّ ما أعجزك إلى الكفاءة ، واعتذر من تقصير إنْ كان ؛ فإنّ الاعتذار يكسر حَمِيَّا اللائمة[2] ، ويردع شَذاةَ الشرّة .

ثمّ تلافَ بعد انكشاف ذلك عنك ما فاتك[3] ، واجهد الجُهد كلّه أنْ
٥١ ظ تكون مخارج الحقوق اللازمة لك من عندك سهلةً ، موصولةً لأصحابها[4] ببِشرك وطلاقة وَجْهك ؛ فقد زعمت الحكماء أنّ القليل مع طلاقة الوجه أوقع بقلوبِ ذوى المروءات من الكثيرِ مع العُبوس والانقباض[5] .

وقد قال بعض الحكماء : « غاية الأحرار أن يَاقَوْا ما يحْذَرون ويحْرَموا ، أحبُّ إليهم من أن يأقَوْا ما يكرهون ويُعْطَوْا » .

[وما أبعدوا عن الحقّ[6]] .

ولا يدعونّك كفرُ كافرٍ لبعض نِعَمك[7] عن آثر هواه على دينه

---

(١) التضجع ، يقال تضجع فى الأمر ، إذا تقعد ولم يقم به . وفى د : « وتغير الرأى » .

(٢) الحميا : السورة والشدة والحدة ، وأصله من كسر حميا الشراب بمزجه بالماء . فى الأصل : « حمى اللائمة » ، ووجهه فى د

(٣) فى الأصل « الانكشاف » وفى د : « انكسار » . والوجه ما أثبت وكلة « ما فاتك » ساقطة من د .

(٤) د : « لأصحابك » .

(٥) الكلام بعده إلى كلة « ويعطوا » فى س ٩ ساقط من د .

(٦) الكلمة من د .

(٧) د : « نعمك » .

ومروءته ، أو عَذْرةُ عاذرٍ تصنَعَ لك وخَتَلك عن مالِكَ ، أنْ ترهـدَ في الإنعام[1] ، وتسيء بثقاتك الظنون ؛ فإن هذا موضع يجد الشيطان في مثله الذريعةَ إلى استفساد الصَّنائع[2] ، وتعطيل المكارم .

واعلم أنَّ استصغارك لِنعمك يكبّرها عند ذوي العقول ، وستركَ لها نشرٌ لها عندهم ؛ فانشرْها بستْرها ، وكبّرها باستصغارها .

واعلم أنَّ من الفعل[3] أفاعيلَ وإنْ عظمت منافعها ، ومنافع أضدادها فالإيثارها فضيلةٌ على كلِّ حال . فاجعَلْ صمتَك أكثرَ من كلامك ؛ فإنه أدلُّ على حكمتك . واجعل عَفْوك أكثر من عقوبتك ؛ فإنَّ ذلك أدلُّ على كرمك . ولا تُفرطنَّ فيه كل الإفراط حتَّى تطّرِح الكلامَ في موضعه ، والتأديبَ في أوانه .

واعلم أنَّ لكلِّ امرئٍ سيّداً من عمله ، قد ساهلته فيه نفسُه وسَلِسَ له فيه هواه ، فتحفَّظْ ذلك من نفسك ، وتقاصَها الزيادةَ فيه ، ورُضْها على تشميره والمواظبةِ عليه[4] .

واحذر الحذرَ كلَّه الاغترار بأمور ثلاثة ؛ فإنَّ من عَطِب بها كثير ، وتلافيَها صعبٌ شديد :

---

(١) في الأصل : « الاعاض » ، وأثبت ما في د .

(٢) الصنائع : جمع صنيعة . وهو ما أعطيته وأسديته من معروف أويد إلى إنسان تصطنعه بها . وفي الأصل : « الطبائع » ، صوابه في د .

(٣) د : « الأفاعيل » .

(٤) انظر ما سبق من التعبير في ص ١٢١ .

أحدها : ألاّ تولّىَ جسائم تعرُّفك وتقلّد مُهِمّ أمورك[١] ووثائق تدبيرك إلاّ امرأ صلاحُه موصولٌ بصلاحك ، وبقاء النّعمة عليك هو بقاء النعمة عليه .

أو أن تأنس أو تفتر[٢] ممن تعلم أنّ بصلاحك فسادَه ، وبارتفاعك
٥٢ ظ انحطاطَه ، وسلامتك عطبَه ؛ فإنّ من كان هكذا فأنت مَلَكُ مَوتِه[٣] . فبحَسَب ذلك فليكن عندك .

أو أن تجعل مالَك كلّه فى عُقدةٍ واحدة ، أو حيِّز واحد ، [أو وجهٍ منفرد[٤]] ، إن اجتاحَته جائحةٌ أو نابتْهُ نائبةٌ بقيتَ حسيرا . وقد قال بعض الحكماء : « فرّقوا المنيّة » ، و « اطلبوا الأرباحَ بكلّ شِعب » .

واعلم أنّه ليس من الأخلاق التى ذمّتْها الحكماء خُلقٌ إلاّ وقد ينفع فى بعض الحالات ، ويردُّ به شَكْله ، ويقام بإزاء مثله ، ويُدافَعَ به نظيره[٥] .

إنّك ستمنَى بصُحبة السُّلطان الحازم العادل ، وبصحبة السُّلطان الأحرق الجهول النَّشوم . فالحازم العادلُ يَسُوسه لك الأدبُ والنُّصح ، والأحرق تسوسُه لك الحِيلة والرِّفق . العادل يَعضُدك منه ثلاث ، ونَصبِر معه لك على ثلاث :

---

(١) فى الأصل : « وتقليدهم أمورك » ، صوابه فى د .

(٢) فى الأصل : « وأن لا تأنس وتحتر » ، صوابه فى د .

(٣) د : « مالك موته » . والوجه ما أثبت من الأصل .

(٤) التكملة من د

(٥) الكلام بعده إلى كلمة « النصحاء » فى ص ١٣٣ ساقط من د

فاللواتى بمضادتك : تسليط العدل وإنفاذ الحكومة ـ وفى ذلك صلاحُ الرعيَّة ـ وإثابة المحسنين الذين إثابتُهم تحصينُ الثغور والثُّل ، والعفو مابُلغ به الاستصلاحُ ، واكتُفِي به من البَسْط . واللَّواتى تصبر نفسُك عليهن : الهوى إلى ما وافق الرأى ، وأمضى الرأى الأَّ بعد التثبت حتَّى تعاونَه عليه النُّصحاء[1] .

ولكنَّى أوصيك برياضة نفسك حتى تذلَّلها على الأمور المحمودة ؛ فإنَّ كلَّ[2] أمرٍ ممدوح هو ممَّا تستثقل النُّفوس . [وممَّا تسرُّ به وتنقلب إليه الأخلاق المذمومة[3]] . فإنْ أهملتها وإبَّاها غلبتْ عليك ، لأنَّها فيها طبيعةٌ [مركَّبة[3]] ، وجِبلَّةٌ مفطورة .

فلتكن المساهلة فى أخلاقك أغلبَ عليك من المعاسَرة ، والحلمُ أولى بك من التحامة ، والصَّبرُ الحاكمَ عليك دون الجزع ، والعفوُ أسبقَ إليك من المجازاة بالذُّنوب ، والمكافأةِ بالسُّوء .

[وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة ، فلتكن محموداتُها غالبةً على أفعالك ، محكَّمة فى أمورك[3]] . فإنَّك إنْ ضبطت [ذلك ، وقوَّمتَ عليه[3]] نفسَك ، عشتَ رخىَّ البال ، قليلَ الهموم ، كثير الصديق قليلَ

---

(١) كذا . ولعله : « وإمضاء الرأى بعد التثبت حتى تعاونه عليه معاونة النصحاء » . وهذا نهاية سقط د الذى نبهت عليه فى ص ١٣٢

(٢) فى الأصل : « وإن كان » صوابه فى د

(٣) التكملة من د

العدوّ ، [سليمَ الدين ، نقيَّ العِرض ، محمودَ الفِعال[1]] ، جميلَ الأُحدوثة في حياتِك وبعد وفاتك ، وكنت بموضع الرجاء أن يَصِل اللهُ لك السَّلامةَ الآجلةَ بالنِّعمة العاجلة ، [إن شاء الله عزّ وجلّ[2]] .

٥٣ و أسأل الله المبتدئَ بكلِّ نِعمة ، والمتولِّيَ لكلِّ إحسان ، أن يصلّي على محمد خِيرتِه من خلقه ، وصفوتِه من بريّته ، وأن يتمّ[3] عليك نعمتَه ، ويشفع لك ماحَوَّلك من نِعمته بالنِّعمة التي يُؤْمَن معها الزَّوال ، في جواره ومرافقةِ أنبيائه . والسلام عليك ورحمة الله .

* * *

تمت الرسالة في الأخلاق المحمودة والمذمومة بعون الله ومَنِّه . والله الموفق للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامُه .

يتلو هذه الرسالة :

كتاب كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً . والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته[4] .

---

(١) التكملة من د

(٢) التكملة من د

(٣) في الأصل : « يتمم » ، وأثبت ما في د .

(٤) وفي د : « تمت الرسالة في كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، والله المحمود على ذلك كثيراً برحمته . يتلو هذه الرسالة إن شاء الله تعالى كتاب شر السودان على البيضان من تأليفه أيضاً . والله الموفق للصواب ، والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامه »

٣

كِتَابُ
كِتْمَانِ السِّرِّ وَحِفْظِ اللِّسَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هي الرسالة الثالثة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتمان السرّ وحفظ اللسان »

ومن هذه الرسالة نسختان :

١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموع رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة بول كراوس وطه الحاجري ، وهي مقابلة على نسخة داماد وعلى كتاب المختار من كلام الجاحظ ، للجهول ورمزها « ط » . وقد وقع في هذه الأخيرة بعض السهو في إيراد الاسم على وجهه ؛ فنبهت على ذلك في الحواشي ، والعصمة لله وحده

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فإنّى قد تصفّحتُ أخلاقَك ، وتدبّرت أعراقَك ، وتأمّلتُ ٥٤ ظ
شِيَمك ، ووزنتُك فعرفتُ مِقدارَك ، وقوّمتك فعلمتُ قيمتَك ، فوجدتُك قد ناهزتَ الكمالَ ، وأوفيتَ على التمام ، وتوقّلتَ فى دَرَج الفضائل[1] ، وكدتَ تكون منقطعَ القرين ، وقاربتَ أن تلقَى عديمَ النَّظير ، لا يطمعُ فاضلٌ أن يفوتَك ، ولا يأنف شريفٌ أن يقصُرَ دونك ، ولا يخشع عالمٌ أن يأخذَ عنك .

ووجدتُك فى خلال ذلك على سبيل تضييعٍ وإهمالٍ لأمرين هما القُطب الذى عليه مدارُ الفضائل ، فكنتَ أحقَّ بالعَذْل ، وأقمَنَ بالتأنيب ممّن لم يسبِقْ شأوَك ، ولم يقسِمْ رُتبتَك ؛ لأنه ليس مَلومًا على تضييع القليل مَن قد أضاعَ الكثير ، ولا يُسام[2] إصلاحَ يومه وتقويمَ ساعته من قد استعوذَ الفسادُ على دهره ، ولا يُحاسَب على الزَّلّة الواحدةِ من لا يعدم منه الزلَل والعِثار ، ولا يُنكَر المنكَرُ على من ليس من أهل المعروف ؛ لأنّ المنكر إذا كثُر صار معروفًا ، وإذا صار المنكرُ معروفًا صار المعروف منكرًا .

وكيف يُعجَب ممن أمره كلُّه عجب ، وإنّما الإنكار والتعجُّب ممن خرج عن مَجرى العادة ، وفارق السُّنّة والسجيّة ، كما قال الأول : « خالِفْ تُذكَر » .

---

(١) التوقل : الصعود . والإسراع فيه .

(٢) سامه الشيء : كلفه إياه وجشمه . وفى الأصل : « ولا يسم » ، وفى ط : « لا يهتم بإصلاح يومه » . وما أثبت أوفق لسياق النص .

وقيل : « الكامل من عُدَّت سَقَطاته » ، وقيل : « من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان يومُه خيراً من غده فهو ممقون ، ومن كان غده خيراً من يومه فذلك السعيدُ المغبوط » . وفى هذا المعنى قال الشاعر :

رأيتك أمسِ خيرَ بنى مَعَدّ ... وأنت اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الضعف خيراً ... كذاكَ تزيد سادة عبد شمس

وقال آخر فى مَعن[1] :

أنت امرؤٌ همُّك المعالى ... ودَأْبُ معروفِكَ الربيعُ
وأنت من وائلٍ صميمٌ ... كالقلب تُحنَى له الضلوعُ[2]
فى كلِّ عام تزيد خيراً ... يُشيمه عنك من يُشيعُ ٥٥ و

والأمران اللذان قَسَمتهما عليك[3] : وضْعُ القولِ فى غير موضعه ، وإضاعة السِّرّ بإذاعته .

وليس الخطرُ فيما أسُومك وأحاولُ حملَك عليه بسهلٍ ولا يسير . وكيف وأنا لا أعرف فى دهرى — على كثير عددِ أهله — رجلاً واحداً ممن ينتحل الخاصَّة ، ويُنسَب إلى العِلْية ، ويَطلُب الرياسة ويحطُب السِّيادة ، ويتحلّى

(١) معن بن زائدة الشيبانى ، كان مضرب المثل فى الجود والشجاعة . وكان ممدحاً مقصوداً . وكان من ولاة بنى أمية ، وعضب عليه بنو العباس فى أوائل دولتهم ، ثم أبلى بلاء حسنا مع المنصور ، فأكرمه وقدمه وصار من خواصه . وقتل سنة ١٥١ ، أو ١٥٢ وقيل سنة ١٥٨ . وفيات الأعيان وتاريخ بغداد ١٣ : ٢٣٥ — ٢٤٤ .

(٢) فى الأصل : « تحيى به » ، والوجه ما أثبت .

(٣) يقال نَمَّ ينُمّ كضرب يضرب ، ونَمَّ ينَمّ كفرح يفرح .

بالأدب ويديم النخانة والزمانة[1] ، والحامَ والفحامة ، أرضَى ضبطَه للسانه ، وأحمدُ حياطتَه لسرّه . وذلك أنّه لا شيء أصعبُ من مكابدة الطبائع[2] ، ومغالبة الأهواء ؛ فإن الدَّولةَ لم تَزل للهوى على الرأى طُولَ الدهر . والهوى هو الدّاعية إلى إذاعة السرّ ، وإطلاقِ اللسانِ بفضل القَول .

وإنّما سمّى العقل عقلاً وحِجراً ، قال تعالى ـ ﴿ هَلْ فى ذلكَ قَسَمٌ لذى حِجْرٍ[3] ﴾ ـ لأنه يزمُّ اللسان ويَخطِمه ، ويشكّله ويَربُثه[4] ، ويقيّد الفضل ويعقله عن أن يمضىَ فُرُطاً فى سبيل الجهل والخطأ والمضرّة ، كما يُعقَل البعير ، ويُحجَر على اليتيم .

وإنّما اللسان تَرجمان القلب ، والقلب خزانة مستحفَظة للخواطر والأسرار ، وكلّ ما يعيه [من[5]] ذلك عن الحواسّ من خير وشرّ ، وما تولّده الشّهوات والأهواء ، وتنتجه الحكمة والعلم .

ومن شأن الصدر ـ على أنه ليس وعاء للأجرام ، وإنّما هى مقدرة [من[5]] الله لا يعرف العبادُ كيف هى ـ أن يضيق بما فيه ، ويستثقل ما حمل

---

(١) النخانة ، من قولهم رجل نخين ، أى دربى ثقيل فى مجلسه

(٢) مكابدة الأمر : معاناة مشقته ، ومقاساة شدته . ووقع فى ط : « مكايدة » خلافاً لما فى الأصل

(٣) الآية ٥ سورة الفجر .

(٤) يشكله ، من شكل الدابة : شد قوائمها بحبل ، واسم ذلك الحبل الشكال ككتاب . الربث : الحبس . وفى الأصل : « ويزنه » ، والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٥ : ٢٦٣

(٥) تكملة ضرورية

منه ، فيستريح إلى بذله ، ويلذّ إلقاءه على اللسان . ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه فى خلواته حتى يفضيّ به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه . كلّ ذلك ما دام الهوى مستولياً على اللّسان ، واستعمل فضولَ النّظر فدعت إلى فضول القول .

فإذا قهر الرأىُ الهوى فاستولى على اللسان ، منعه من تلك العادة ، وردّه عن تلك الدُّربة ، وجشّمه مؤونة الصّبر على متر الحلم والحكمة .

٥٥ ظ ولا شىء أعجب من أنّ المنطق أحد مواهب الله العظام ، ونِعمه الجسام ، وأن صاحبها مسؤولٌ عنها ، ومُحاسَب على ماخوّل منها ، أوجبَ الله عليه استعمالها فى ذكره وطاعته ، والقيامَ بقسطه وحجّته ، ووضّعها مواضعَ النّفع فى الدين والدنيا ، والإنفاق منها بالمعروف لفظةً لفظة ، وصرفها عن أضدادها .

فلم يرضَ الإنسانُ أنّ عطّلها عمّا خُلقت له مما ينفعه حتّى استعملها فى ضدّ ذلك مما يضرّه ، فاجتمع عليه الإثمانِ اللذان احتمعا على صاحب المالِ الذى كنزه ومنعه من حقّه ، فوجَب عليه إثم المنع وإن كان لم يصرفْه فى معصية ، ثم صرفِه فى أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إثم الإنفاق فيها[1] . وهذه غاية الغَبن والخُسران . نعوذ بالله منها .

فاللسانُ أداةٌ مستعمَلة ، لا نحمد له ولا ذمّ عليه ، وإنما الحمد للحلم واللّوم على الجهل . فالحلمُ هو الاسمُ الجامع لكلّ فعل ، وهو سلطان العقل القامع للهوى . فليس قمع الغضب وتسكين قوة الشّرّة ، وإسقاط طائر الخُرق بأحقّ بهذا الاسم ، ولا أولى بهذا الرسم ، من[2] قمع فرط الرضا وغلبة الشهوات ،

(١) فى الأصل : « منها » والمراد به فى أبواب الباطل .

(٢) فى الأصل : « مع » ، صوابه من ط

والمنع من سوء الفرح والبطر ، ومن سوء الجزع والهلع ، وسرعة الحد والذم ، وسوء الطبع والجشع ، وسوء مبادرة الفرصة ، وفرط الحرص على الطلبة ، وشدة الحنين والرقة ، وكثرة الشكوى والأسف ، وقرب وقت الرضا من وقت السخط ، ووقت السخط من وقت الرضا ؛ ومن اتفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف ، وفى غير نفع ولا جدوى[1] .

واعلم يقيناً أنّ الصمت سرمداً أبداً ، أسهل مراماً - على ما فيه من المشقة - من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز ، والقصد للصواب ، لما قدّمنا ذكره من علة محاذبة الطباع : ولأنّ من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجبلة التى جُبل عليها الناس نُقلت الأخبار ٥٦ و
عن الماضين إلى الباقين ، عن الغائب إلى الشاهد[2] ، وأحبّ الناس أن ينقل عنهم[3] ، ونقّشوا خواطرهم فى الصخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبتت حجّة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ، ولم يحصر آيات الرسل ، وقام مجىء الأخبار عن غير تشاعر[4] ولا تواطؤ مقامَ العيان ؛ وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتدبيرات والعلامات ؛

---

(١) الجدى : الحلوى والغناء والنفع . يكتب بالألف والياء . ويقال بالمد أيضاً « الجداء » ، ومنه قوله :

لقد حسداً على مالك إذا الحرب شبت بأجذالها

(٢) الشاهد : الحاضر ، والمراد به الباقى المعاصر .

(٣) فى الأصل . « أن يحقل عنهم » ، صوابه من ط .

(٤) المراد بالتشاعر المخالطة والملابسة والمعاشرة . انظر الحيوان ص ٣ س ١٥ و ٢٦٣ س ٢ . وأساس البلاغة (شعر) ولسان العرب (شعر ٨١) .

وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة إلى قبول الإخبار عن الرسل ، وسلّما إلى التصديق ، وعوناً على الرضا بالتقليد .

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحالت هذا المحلّ . ولكن الله عزّ وجلّ حبّبها إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النساء داعيةً للجماع ، ولذّةَ الجماع سبيلاً للنّسل ، والرقّة على الولد عوناً على التربية والحضانة — وبهما كان النشوّ والنماء — وحُبَّ الطعام والشراب سبباً للغذاء ، والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدنيا .

فعسُر على الإنسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة ، والانقيادِ لهذه الطبيعة ؛ وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهلَ من مُجاذبة الطباع . فاعتراهُ الكربُ لكتمان السرّ ، وغشيَه لذلك سُقم وكد يحسُّ به في سُويداء قلبه بمثل دبيب النمل ، وحِكّة الجرب ، ومثل لسع الدَّبْر ووخْز الأشافي[1] ، على قدر اختلاف مقادير الحلوم والرّزانة والخفّة . فإذا باح بسرّه فكأنه أنشطَ من عِقال[2] . ولذلك قيل : « الصَّدر إذا ضاق برأ » مثلاً مضروباً لهذه الحال . وقيل :

* ولا بدّ من من شكوى إذا لم يكن صبر[3] *

---

(١) الدَّبر جماعة النحل . والأشافي : جمع الإشفى ، وهو المثقب يخرز به .

(٢) أي حل من عقال ، والعقال : الرباط الذي يعقل به .

(٣) لمالك بن حديجة كما في حماسة البحتري ١٩٧ . وأنشد هذا العجز في الحيوان ١ : ٣٠٢ وصدره كما في البيان ٣ : ٢٢٠ و ٤ : ٩٣ :

* وما كثرة الشكوى بأمر حزامة *

ويروى : « بحد حزامة » ويروى : « لعمرك ما الشكوى بأمر حزامة » .

وليس قولنا « طُبع الإنسانُ على حبّ الإخبار والاستخبار » حجّةً له على الله ، لأنه طبع على حُبّ النِّساء ومُنِع الزّنى ، وحُبّب إليه الطعامُ ومُنع من الحرام . وكذلك حُبّب إليه أن يُخبِر بالحقّ النافع ويَستخبِر عنه ، وحُملت فيه استطاعةُ هذا وذاك ، فاختار الهوى على الرأى . ٥٦ ظ

ومِمّا يؤكّد هذا المعنى فى كَرْب الكتمان وصُعوبته على العقلاء فضلًا عن غيرهم ، ما رووه[1] عن بعض فقهائهم أنه كان يحمل أخباراً مستورة لا يحتملها العوامّ ، فضاق صدرُه بها ، فكان يبرُز إلى العَرَاء[2] فيحتفر بها حُفيرةً يُودِعها سرًّا ، ثم يَنكبّ على ذلك الدَّنّ فيحدّثه ناسمع ، فيروّحُ عن قلبه ، ويَرى أنْ قد نَقل سرَّه من وِعاء إلى وعاء .

وكان الأعمش[3] سيّئَ الخُلق غَلِقًا ، وكان أصحاب الحديث يُضجرونه ويَسُومونه نشرَ ما يحبّ طيّه عنهم ، وتَكرارَ ما يحدّثهم به ، ويتعنّتونه ، فيحلف لا يحدّثهم الشهرَ والأكثر والأقلّ ، فإذا فعل ذلك ضاق صدرُه بما فيه ، وتطلّعت الأحبار إلى الخروج منه ، فيقبل على شاةٍ كانت له[4] فيحدّثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : « ليت أنّى كنت شاةَ الأعمش » .

---

(١) فى الأصل : « رواه »

(٢) العراء : الأرض الواسعة المستوية الصحرة ، وأنث الضمير بعدها لمعناها . وفى الأصل : « العرى » ، تحريف كتابى .

(٣) هو سليمان بن مهران الأعمش ، المحدث المعروف . ولد سنة ٦١ يوم عاشوراء ، وهو يوم مقتل الحسين ، وتوفى سنة ١٨٨ .

(٤) فى ثمار القلوب للثعالبى ١٣٤ أنها عنز . والشاة : الواحدة من الغنم ، وقيل الشاة تكون من الضأن والمز والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش .

وشكا هشامُ بن عبد الملك ما يجدُ من فقد الأنيس المأمونِ على سرِّه فقال : أكلت الحامض والحلوَ حتَّى ما أجد لها طعما ، وأتيتُ النساء حتى ما أبالى أمرأةً لقيتُ أم حائطاً ، فما بقيت لى لذّة إلّا وجود أيج أضع يدى وبينه مَؤونة التحفُّظ .

وقال معاوية لعمرو بن العاص : ما اللذة ؟ قال : تأمر شبابَ قريش أن يخرجوا عنا . ففعل ، فقال : اللذّةُ طرح المروءة .

وقد صدَقَ عمرو ، ما تكون الرَّعاثة والوقار إلا بحمل على النفس شديد ، ورياضة مُتعبة .

وقال بعض الشعراء[1] :

ألم تَرَ أنّ وُشاة الرجا ل لا يتركون أديماً صحيحا
فلا تفشِ سِرَّكَ إلّا إليك فإنّ لكلّ نصيحٍ نصيحا

والسرُّ ـ أنالك اللهُ ـ إذا تجاوز صدرَ صاحبه وأفلتَ من لسانه إلى أذنِ واحدةٍ فليس حينئذ بسرٍّ ، بل ذاك أولى بالإذاعة ، ومفتاحُ النَّشر[2] والشُّهرة . وإنّما بينه وبين أن يَشيع ويستطير أن يُدفع إلى أذنٍ ثانية . وهو مع قلّة المأمونين عليه ، وكَرْب الكتمان ، حَرِيٌّ بالانتقال إليها فى طرفة عين . ٥٧ و

---

(١) هو أنس بن أسيد ، كما فى أدب الدنيا والدين ٢٧٩ . وفى الكامل ٤٢٤ : « وأحسن ما سمع فى هذا ما يجرى إلى على بن أبى طالب ، فقائل يقول : هو له ، ويقول آخرون : قاله متمثلا . ولم يختلف فى أنه كان يكثر إنشاده » وانظر الحيوان ٥ : ١٨١ وما فى حواشيه من تخريج

(٢) فى ط : « النشر » ، خلافاً لما هو واضح فى الأصل